

كبديل عن الأفكار والعقائد المستوردة
وأبحاث أخرى

محمد قطب

"من أبحاث ووقائع الندوة العالمية للشباب الإسلامي"



مكتبة السنة



الإسلام

كبديل عن الأفكار والعقائد المستوردة
وأبحاث أخرى

محمد قطب

«من أبحاث ووقائع الندوة العالمية للشباب الإسلامي»

مكتبة السنة


مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم
السلفية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

[آل عمران : ٨٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد : فلا شك أن الجيل المعاصر من المسلمين يواجه تحديات فكرية عديدة، والمباديء المعروضة في سوق الأفكار كثيرة، والاتجاهات الاجتماعية والفكرية والسياسية أكثر من أن تُحصى وتُعدّ، والمروّجون لها يستخدمون شتى وسائل الإغراء وأساليب الدعاية التي بلغتها حضارة العصر .. زعموا !!، لتزيينها وجعلها مقبولة لدى الناس، ويتخذون من الشباب هدفاً وغرضاً لأفكارهم الهدامة، لأن الشباب في كل أمة يمثل من حيث الكَمّ نسبة لا تَقلّ عن ٥٠٪، ويمثل من حيث الكيف: القوة الدافعة لتيار الحياة في الأمة ... فلا عجب أن كان هدفاً لسهام تلك الأفكار، وغايةً يركز عليها أصحابها والمروجون لها... ولا غرابة كذلك إذا تعددت أشكال المنظمات الهدّامة في أوساط الشباب، وتكاثرت أنشطتها وأعمالها، حتي أصبح للباطل وسط الشباب أعوان كثيرون، وللشر بينهم جنود لا يستهان بهم عدداً وعدّة.

من هنا كان لزاماً على الغيورين على مصلحة الشباب المسلم، المدركين

لدوره الخطير البناء، والحريصين على حمايته من شر الاتجاهات الضارة؛ أن يبذلوا الجهد لتخطيط نشاطات الشباب وتوجيه طاقاته الزاخرة، وأن يعملوا على حمايته بوسائل وأساليب لا تقل كفاءة وقدرة عن وسائل الأعداء – إن لم تتفوق عليها –، تحقيقاً لأمر الله تعالى: ﴿ **وَأعدُّوا لَهم مَا استَطعتم من قوة** ﴾[سورة الأنفال: آية٦٠] قوة شاملة لكافة النواحي، تنظيماً وتنسيقاً وتجهيزاً.

ولذا كان الدافع وراء فكرة إقامة « الندوة العالمية للشباب الإسلامي » هو: أن تكون وسيلة لاستكمال منظمات العمل الإسلامي عدتها، وترقية برامجها ووسائلها، وأداء لتوثيق روابط التعاون والتنسيق بينها، وتوفير كفاءة أكبر لأداء برامجها، وتوسيع نطاق نشاطاتها.

وقد برزت إلى الوجود فكرة هذه الندوة لتأخذ بيد الشباب المسلم في كل مكان، وتستثمر الفكر الإسلامي الأصيل في نفوسه وتطلعاته ومتطلباته، وتعمل على مناقشة مشكلاته مع وضع أيسر الحلول لها، وتحوله بذلك إلى طاقة كبرى تُؤثر في المجتمع الإسلامي .

وهي هيئة عالمية إسلامية مستقلة، تأسست عام ١٣٩٢هـ الموافق ١٩٧٢م، ومقرها: الرياض – المملكة العربية السعودية، وهي تضم أكثر من أربعمائة وخسمين منظمة شبابية وطلابية إسلامية في القارات الخمس.

ومن أهدافها:

– خدمة الفكر الإسلامي الصحيح على أساس من التوحيد الخالص.

– تعميق أسباب الوحدة الفكرية وتقوية روابط الأُخوة الإيمانية بين الشباب المسلم.

- تعريف العالم بالإسلام بجميع الوسائل، وعلى أوسع نطاق.

- توضيح ودعم الدور الإيجابي للشباب والطلاب في بناء المجتمع الإسلامي.

- دعم منظمات الشباب الإسلامي في جميع أنحاء العالم والتنسيق بينها ومساعدتها في تنفيذ برامجها.

لقاءاتها العالمية:

* تعقد الندوة لقاءها العالمي كل ثلاث سنوات، وقد عقدت حتى الآن ستة لقاءات عالمية، تمت جميعها في الرياض باستثناء اللقاء الخامس عُقد في كينيا عام ١٤٠٢هـ، وحضرها ممثلو المنظمات الإسلامية الشبابية والطلابية في جميع أنحاء العالم لاختيار أعضاء مجلس الأمانة العامة للندوة، وللبحث في القضايا التي تهم الشباب المسلم.

وتساهم الندوة وتقيم لقاءات إقليمية ومحلية ومخيمات للتدريب القيادي الإسلامي الشبابي على مدار العام في مختلف أرجاء العالم.

* * *

* وهذه محاضرات هامة بناءة ألقاها الأستاذ: محمد قطب - حفظه الله - ضمن أبحاث ووقائع الندوة العالمية للشباب، وقد نشرت ضمن أعمال اللقاءات: « الأول والثاني والثالث » في كتب صدرت عن هذه الندوة المباركة، بعد أن أعدها القائمون على الندوة - وفقهم الله - من محاضرات مسموعة إلى محاضرات مقروءة.

وقد رأينا إفرادها بالطبع ؛ كي يستفيد منها المسلمون في كل مكان لقيمتها العلمية ولمكانة المؤلف - وفقه الله وسدده.

- وقد قمنا بتخريج الأحاديث النبوية من مصادرها مع بيان درجة الحديث، وضبط ما يشكل من الألفاظ، وإعداد هذه المقالات للنشر.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

﴿ يريدون ليطفئوا نور اللّٰه بأفواههم والله متم نوره ولو كَره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾.

وفي الختام: نسأل الله سبحانه أن يبارك في جهود المخلصين في حقل الدعوة وأن يوفقهم وأن يجمع كلمة المسلمين على الحق، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين .

الناشر

مكتبة السنة - القاهرة

شرف حجازى

بسم الله الرحمن الرحيم

« دعم الفكر الإسلامى لمواجهة الغزو الفكرى »

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

أيها السادة الزملاء والإخوة.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إن موضوع دعم الفكر الإسلامي وحمايته من الغزو الفكري يتناول نقاطاً سأتحدث عن بعضها. ويتحدث الإخوة الزملاء عن سائرها.

قد نحتاج أولاً أن نُعرِّف ما الفكر الإسلامي الذي نريد أن ندعمه؟ بديهي أن الفكر الإسلامي في كتب وفي أبحاث وفي محاضرات، وفي إعلام بمختلف الطرق الإذاعية والتليفزيونية، هذا هو مجموع ما يمكن أن نُطْلق عليه الفكر الإسلامي.

وليس كل حديث عن الإسلام يدخل في نطاقنا هذا، وإلا فالمستشرقون مثلاً يتحدثون عن الإسلام. هذا تيار لا نحتاج أن ندعمه؛ بل يحتاج على العكس من ذلك أن نصدّه ونرده. وهناك كتابات عن الإسلام عائمة لا تحدد شيئاً، هذه لا تحتاج إلى حماية ولا دعم، فهي موجودة، وحسبنا أنها موجودة، وكان ينبغي الإنتاج في هذا الباب. إنها لا تغنى شيئاً، كتابات تقول إن الإسلام عظيم، إن الإسلام رائع، إن الإسلام بديع، ثم لا تحدد شيئاً ولا تعطى

دراسة موضوعية لأي جانب من جوانب الإِسلام. هذه لا نتعرض لها، لا يُمنع ولا يُدعم، بل كان ينبغى أن نتجه في العالم الإِسلامى تدريجياً إلى الإقلال من هذا الإنتاج، لأنه إن لم يكن يضر فهو لا ينفع.

على أي حال أتحدث إذاً عن الإنتاج الفكريّ السليم الذي يزيدنا معرفة بالإسلام، والذي يكشف من مشاكلنا ما نكون غافلين عنه، ويقدم لنا حلولاً لهذه المشكلات. هذا هو التفكير النافع الذي يحتاج منّا إلى دعم، والذي نَبحث ونَسأل دعمه.

الوسائل كما أرى - من وِجْهة نظري - تشمل حماية الفكر السليم الموجود بالفعل، وهذه نقطة سيتحدث عنها أخى الدكتور توفيق الشاوي(*).

وتكملة الناقص في مجالات الفكر الإِسلامى، وتصحيح المنحرف من الموجود حالياً، ومنع التيارات المعاكسة للفكر الإسلامي في مختلف وسائل الإعلام، وهذه النقطة سأحدثكم فيها أنا.

فأتحدث عن تكملة الناقص في ما لدينا من فكر إسلامي.

لقد اجتهد الكتاب المسلمون وبذلوا جهدهم لتوضيح بعض المفاهيم الإِسلامية. ولكنّا لا نستطيع أن نزعم أن كل ميدان البحث في الإِسلام قد غَطي، حتى الآن موضوعات ما تزال بكراً تماماً لم يُكتب فيها شيء على الإطلاق وهناك موضوعات كُتب فيها القليل تحتاج إلى كثير جداً من التوضيح والتحديد والتفصيل، هذه الموضوعات ينبغي أن نبذل جهدنا فيها. أضرب أمثلة، ولقد أجور بعض الشيء على ندوة سابقة، أو أكرر بعض ما قيل فيها ... لابأس، لأن الموضوعات متداخلة.

(*) نَصّ كلمة الدكتور توفيق الشاوى، تجدها عقب هذا المبحث بالهامش « الناشر ».

إننا حين نتحدث في الاجتماع لا نجد كتباً إسلامية تحدثنا عن الاجتماع، فننقل آراء مفكري أوروبا، إمّا أن ننقلها بأسماء أصحابها، أو ما هو أسوأ من ذلك: أن نقوم بترجمتها ثم نضع أسماءنا المسلمة عليها!

وأنا أضرب مثلاً عن علم الاجتماع بالذات: إن الذي يُدَرَّس والذي يُنشَر على طالب العلم في معظم بلاد العالم الإِسلامى هى نظريات «دوركايم» اليهودي، ونحن نقدمها إمّا باسم دوركايم ونمتدحها، أو يحدث أحياناً أن يجيء مؤلف ينقل آراء دوركايم وينسبها إلى نفسه. وهو في نظري أسوأ؛ لأنّه يقدم باسم إسلامي هذا الفكر المضاد للإِسلام. ينبغي أن تكون لدينا نظرية اجتماعية إسلامية، وليس هذا بالأمر العسير إذا توفرنا عليه. إنّ ابن خلدون - وهو سابق لنا عدة قرون - كان هو أول من وضع فلسفة للتاريخ، ومبادئ لعلم الاجتماع، وكثير من مفكري الغرب يعودون إلى ابن خلدون، إمّا ذاكرين فضله أو مستولين على أفكاره وناسبين هذه الأفكار إلى أنفسهم. نحن اليوم أولى أن نقدم نظرية اجتماعية إسلامية متكاملة.

* * *

في علم النفس مثلا إننا ما زلنا نقدم لقرائنا أو لطلابنا نظريات علم النفس الغربى، ونفس الشيء: إما أن ننسبها إلى أصحابها الغربيين، وإما أن نسطو عليها، ظانين أن ذلك بالتعبير المصري « شطارة » أن ننقل هذه الأفكار ونضع أسماءنا عليها. ينبغي أن ننظر في النفس البشرية من وجهة نظر الإسلام.

القرآن هو كتابنا، ولقد تحدث القرآن حديثاً مليئاً عن النفس الإنسانية في جميع حالاتها، حالات الارتفاع وحالات الهبوط، وقد وجدت نظرية متكاملة عن النفس البشرية في القرآن - كتبت خواطر عنها في كتاب «الإِنسان بين

المادية والإسلام » وكتاب «دراسات في النفس الإنسانية » - إنني أذكر الكتابين كجهد متواضع جداً مشاركة في هذا الأمر، ولكن الميدان واسع ويحتاج إلى كل باحث في علم النفس بقلب مسلم وعقل مسلم، أن يقدم لنا المزيد، وسيجد في كتب السلف الذين سبقونا كثيراً من الكتابات المضيئة المشرقة عن النفس البشرية، يتخذها مراجع.

* * *

في التربية الإسلامية. مازلنا في التربية - نقدم نظريات التربية الغربية كأننا لا نملك منهجاً تربوياً إسلامياً، والمنهج التربوي الإسلامي موجود في الكتاب والسُّنة، فإذا رجعنا إلى هذين الأصلين الكبيرين نجد فيهما متطلبات حياتنا كلها، فمناهج التربية ينبغى أن تُستَمد من الإِسلام ولكن القرآن ليس كتاب نظريات، إنما هو كتاب توجيه وإرشاد للأمّة التى وُصفت بأنها خير أمّة وعلينا نحن المفكرين أن نستنبط من الإشارات المجملة الواردة في القرآن، أو الواردة فيما نشاء من مناهج تفصيلية، وهذا يحتاج إلى جهد ويحتاج إلى دراسة، مثل ذلك كثير .

* * *

الاقتصاد كتب فيه أبحاث، ولكن الاقتصاد أوسع من الأبحاث التي كتبت بالفعل وما يزال الاقتصاد أوسع من الأبحاث التي كتبت بالفعل، وما يزال الاقتصاد مفتوحاً لمزيد من الدراسات، في النظرية، وفي التطبيق، وقد لا نجد مجالاً كبيراً الآن للكتابة في التطبيق وفي كل مجالات التطبيق لأن التطبيق يحتاج إلى تجربة، نضع النظرية أولاً، ونتصور تجربة معينة، فإذا أجريناها بالفعل تبين لنا أوجه النقص فيها، فنضيف إلى ما كنا قلناه.

هذه كلها مجالات ينقصنا فيها الكتابة والتأليف، فلتكن إحدى وسائل الدعم أن يتوجه باحثون ومفكرون إلى هذه الموضوعات الخاوية حتى الآن فيكتب فيها.

مجال من المجالات التي تنقصنا جداً الكتابة للأطفال، والكتابة لليافعين. إننا لا نكاد نجد لأطفالنا الصغار مادة إسلامية نقدمها لهم، سواء في المدرسة، أو في البيت.

* * *

والتاريخ الإِسلامي على سبيل المثال غني ببطولات لم تتوفر لأمّة في التاريخ كله، وفي النمو البشري فترة تعجب بالبطولات هي فترة المراهقة، فترة بطبيعتها تتجه إلى الإعجاب بالبطولة، ومحاولات البطولات خلقها الله في الفطرة لتكون نازعاً ينزع بالناس إلى الصعود. هذه الفترة في كل بلاد العالِم تقدم للتلاميذ فيها بطولات، أحياناً تكون بطولات خرافية، وأحياناً هي بطولات مخترعة. ولازلت أذكر وأنا في كلية الآداب في القاهرة أنّه كان يدرّس لنا كتاباً بعنوان تاريخ البحارة الإنجليز إنّه تاريخ القراصنة الإنجليز، ولكنهم صنعوا من القراصنة أبطالاً. إنهم فقراء في البطولات. ونحن أغنى أمّة في التاريخ في البطولات لا يقدم لأبنائنا هذه البطولات في السن الفطرية الطبيعية التي تتوجه إلى حب البطولة.

* * *

النقطة الثانية التي أريد أن أتطرق إليها سريعاً هي تصحيح المنحرف من الفكر الموجود في التاريخ الإِسلامي، مثلاً: الذي نقرأه – سواء في المدرسة الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية أو الجامعة أو الذي يقرأه القارئ العام –

معظمه مكتوب على أيدي المستشرقين أو تلامذة المستشرقين. ولقد وضع المستشرقون وتلاميذهم سموماً كثيرة في هذا التاريخ الذي يقدم بين أيديهم. السم الأكبر فيه يتلخص في أنهم يعرضون فترة الخلفاء الراشدين– فترة البعثة النبوية والخلفاء الراشدين – بكل بهائها ورونقها، ثم يركزون بعد ذلك على فترة الانحراف، يهملون مجالات الإسلام التي انتشر فيها الخير، وأضاء فيها النور، وتعلمت منها البشرية كلها. يهملون مجالات العظمة التطبيقية الواقعية في تاريخ الإِسلام، و يركزون على التاريخ السياسى في الإِسلام الذي يتمثل فيه خط انحراف المسلمين عن الإِسلام الصحيح. أنا لا أريد أن أنكر هذا الانحراف لأنّه واقع، ولقد أمرنا أن نقول الحق ولو على أنفسنا، ولكن حين ندرس الإِسلام في مجال العظمة ثم ندرس هذا الانحراف في داخل هذا المجال، يأخذ حيزه الحقيقي، ويبدو كم حقق هذا الإِسلام على مدار التاريخ من خير لم يحققه نظام في تاريخ البشرية كلها، وكيف قامت هذه الأمة برسالاتها في مجالات الحياة، مجالات العقيدة ومجالات الفكر ومجالات العلم ومجالات الحضارة ومجالات الصناعة. كل هذه المجالات حققت فيها الأمّة الإِسلامية – برغم انحراف الخط السياسي – أشياء لم تحقق على يد أمّة أخرى في التاريخ. كل هذا يهمل ويركز الباحثون – أو الدارسون – على خط الانحراف السياسي ليحدث أثراً في نفوس المسلمين! هو الأثر المقصود من أن الإِسلام لم يعشْ إلا سنوات قليلة، لم يعش إلا سنوات الخلافة الراشدة وذهب بعد ذلك الإِسلام.

كذبوا

إن الإِسلام بقي في الأرض إلى اليوم، حقيقة أنّه حدثت انحرافات وأحياناً حدثت انحرافات خطيرة، ولكن هذا لم ينهِ تاريخ الإِسلام في الأرض. لقد وعد

الله سبحانه وتعالى أن يبقى الإِسلام ظاهراً في الأرض إلى قيام الساعة، ووعده الحق، وإن حركات البعث القائمة اليوم لهي دليل بذاتها على أن هذا الإِسلام لم يذهب من الأرض، ولن يذهب أبداً إن شاء الله. لكن كتب التاريخ التي ندرسها بين أيدينا اليوم تعطي الإيحاء المسموم أن الإِسلام لم يعش إلا سنوات قليلة.

نريد أن نكتب تاريخ الإِسلام من جديد للطفل الصغير في المدرسة الابتدائية ... اليافع في المدرسة الإعدادية ... للشباب الصغير في المدرسة الثانوية، وفي الجامعة، وللقارئ العام الذي تأثر فكره بهذه السموم الاستشراقية، نكتب له تاريخ الإِسلام من جديد، فلا نركز على خط الانحراف – وإن كنا لا نهمل ذكره – ولكن نركز على ميادين العظمة في تاريخ الإِسلام، وهي كثيرة، وهي تستحق من كل إنسان أن يعتز بها، وأن يفيد منها.

* * *

أمر أخير أريد أن أتحدث عنه – وأخشى أن أكون جاوزت الوقت المسموح لي به –: أتحدث عن ضرورة منع التيارات المعاكسة للإِسلام في مختلف وسائل الإعلام، وسائل الإعلام التي نعرفها هي الصحافة والإذاعة والتلفزيون والكتاب، كلها وخاصة الإذاعة والتلفزيون، وإنهما من إبداع العقل البشرى.

الله سبحانه وتعالى أعطى لنا عقولاً مبدعة، وهذه من المواهب الربانية، هذه العقول المبدعة تخترع كل حين اختراعات تسخرها لخدمة الإنسان، ولكن هي مخترعات محايدة، أعني أنها تصلح للخير وتصلح للشر، فإذا تلقفها الشريرون فإن إنتاجها يكون شريراً ولا شك، لا لأنها هي في ذاتها أداة شر؛ ولكن الذين يوجهونها إلى الشر. أما إذا تلقفها الخيرون فإنها تعطى ولا شك إنتاجاً خيراً.

إنها لا تتجه إلى الخير أو إلى الشر من ذات نفسها، إنما تتجه إلى الخير والشر بتوجيه الموجهين لها. وهذه الوسائل لو استخدمت استخداماً صحيحاً بروح إسلامية صحيحة لأدت خدمات جبارة للفكر الإسلامي وفي تربية المسلمين.

التلفزيون يدخل كل بيت، فكيف لو استخدمناه في التربية الإسلامية! إنه إذاً يربي الأسر وهي في داخل بيوتها! يصل إليها بما لا نستطيع أن نصل إليه في المدرسة ولا بالصحيفة ولا بالكتاب، إنها أداة طيعة لكل ما تُوَجه إليه. فلنتول الإشراف الصحيح السليم على هذه الأدوات: الصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما أيضاً - السينما التعليمية - والكتاب، كلها تصلح أدوات هائلة لتوجيه الفكر الإسلامي السليم للإفادة به على نطاق واسع.

ولكنها على حالها الموجود اليوم في مختلف بلاد العالم الإسلامى لا تنقل إلينا شيئاً من الفائدة.

نريد أن يكون من أهدافنا لحماية الفكر الإسلامي منع هذه الأدوات من بث السموم المعاكسة للإسلام وتوجيهها لخدمة الإسلام.

* * *

وأود أن أختم كلمتي بهذه الكلمة:

في كثير من الأحيان تدخل علينا برامج لا نُدرك في بادئ الأمر مدى ضررها لأنها لا تُهاجم الإسلام مباشرة، لا تذكر اسم الإسلام أبداً، ولكنها في واقع الأمر تنخر في عظم الإسلام بوسائل خبيثة.

فمثلاً حين يقال إن المرأة نصف المجتمع، ولا يجوز أن تبقى خاملة، وإنها يجب أن تشارك في الحياة العامة، هنا لم يذكر المؤلف والكاتب شيئاً أبداً عن الإسلام، ولكنه في الحقيقة يقصد شيئاً معيناً مضاداً للإسلام.

الإِسلام يحترم المرأة، والإِسلام يعطيها مساواتها الإِنسانية بالرجل، ولكنه لا يساويها في المطلوب منها، ولا في التكاليف، لأن الله خالق الجنسين، وهو اللطيف الخبير فيما تصلح المرأة، وفيما أعدّت له، وفيما يصلح الرجل، وفيما أعد له، وهو سبحانه الذي خلق هذه وهذا، وأعطى كلاً منهما تكليفه، فهذه القولة حين نأخذها على قاعدتها الأوروبية: المرأة نصف المجتمع، والمرأة لا يجب أن تبقى خاملة، والمرأة لا يجب أن تبقى حبيسة الجدران، والمرأة يجب أن تخرج إلى المجتمع لتشارك الرجل في حمل مسئولياته، وهذه - كما قيل -: « كلمة حق يراد بها باطل » يراد بها أن تخرج المرأة على الطريقة الأوروبية.

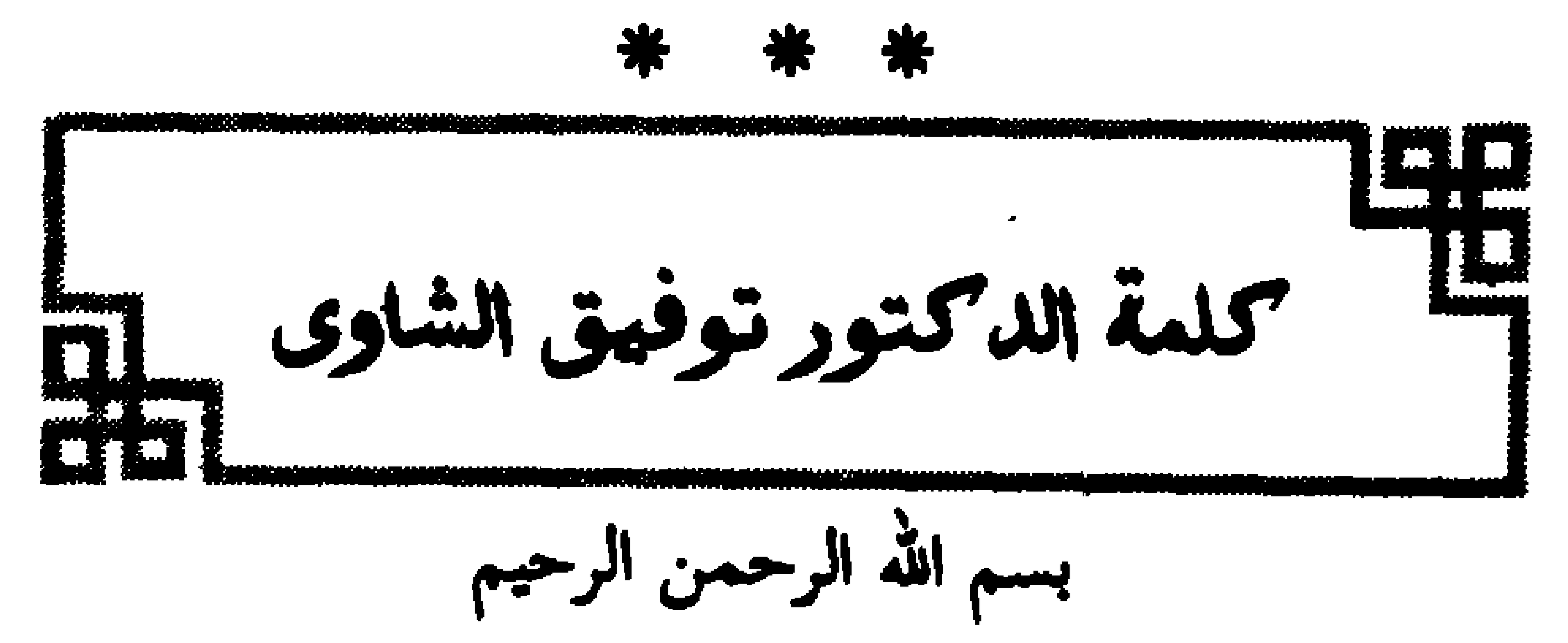
مثل هذه التوجيهات ينبغي أن نلتفت إليها. هنالك ما يندس في وسائل إعلامنا من قضايا قد لا تحارب الإِسلام جهراً، ولكنها تندس إليه لتحدث في النهاية مجتمعاً غير إسلامي.

هذه الوسائل الإعلامية ينبغي مراجعتها مراجعة دقيقة، وتحويلها لخدمة الإِسلام بدلاً من أن تكون حرباً عليه

وأشكركم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

* * *



كلمة الدكتور توفيق الشاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة ... أيها الإخوة الكرام ... أحمد الله إليكم، وأصلي وأسلم على رسوله نبينا محمد ﷺ، وأشكر الأستاذ محمد قطب إذ أحال إليّ النقطة الأولى في هذا البحث، وهي موضوع حماية الفكر الإسلامي الموجود حالياً.

وأبدأ حديثي من حيث انتهى. فقد أنهى حديثه بالإشارة إلى الانحرافات، وإلى الاتجاهات المعادية للإسلام التي يجب مقاومتها والقضاء عليها.

ولكي نحقق هذا الهدف لابد أن نضع الخط المميز - أو الحد الفاصل - بين ما نسميه نحن الفكر الإسلامي وما نسميه الأفكار المعادية والمنحرفة. وهذا يحتاج إلى تعريف واضح للفكر الإسلامي. هذا التعريف - في نظري - هو الفكر الذي يدافع عن مقومات الإسلام ويساهم في تدعيمها وتقويتها. وموضوع هذه الندوة منذ ابتدأنا، هو المقومات الإسلامية. فإذا اتضحت أمامنا - أو في نظرنا - ما هي المقومات الإسلامية -كما شرحها لنا أساتذتنا ومحاضرونا الأفاضل في هذا المكان، وإن كانت تحتاج إلى مزيد من الشرح - فعند ذلك نعرف: ما هو الفكر الإسلامي الذي يدافع عن هذه المقومات. أما الفكر المنحرف أو الفكر المعادي فهو الذي يهاجمها، ويعمل على إضعافها.

وقد أشار الأستاذ محمد قطب أيضاً إلى خصائص الفكر الإسلامي، ولعله اكتفى بما ذكره في محاضرته التي ألقاها، وأنا أحب أن أعيده عليكم، وهو أن أول خصائص الفكر الإسلامي هو ما ذكرته من ارتباطه بالمقومات الأصيلة لهذه الأمة. فالفكر الإسلامي هو الفكر الأصيل النابع من عقيدتنا أولاً، ومما يتصل بهذه العقيدة من مقومات ومن قيم إسلامية، وهذا ما نسميه بأصالة الفكر. وهناك صفة أخرى هامة جداً أشار إليها أساتذتنا ومحاضرونا في هذا المجال - ومنهم الأستاذ محمد قطب - وهي شمول الفكر الإسلامي . وأنا أحب أن أركز على شمول الفكر الإسلامي: إن مقاومة الشمول - وإن كان قد أسهم فيها أعداء الإسلام بنصيب كبير من طريق الهجوم على شمول الإسلام ذاته ومحاولة فرض مبدأ فصل الدين عن الدولة الذي يحطم الصفة الأصيلة في الإسلام وهي الشمول - إلا أن بعض المسلمين أنفسهم قد ساهموا أيضاً في إضعاف فكرة الشمول بالنسبة للفكر الإسلامي، حتى انتهينا تقريباً في نظر العامة وفي نظر المؤلفين والباحثين إلى أن الفكر الإسلامي يكاد ينحصر في العقائد والعبادات والفقه، وهي ما تسمى بعلوم الإسلام كما في بعض الجامعات الغربية، وبالأسف في بعض الأوساط =

= العلمية الإسلامية.

والحقيقة أن هذا الوصف – أو هذا التحديد لعلوم الإسلام – فيه تحطيم لمبدأ شمول الإسلام ذاته، ومبدأ شمول الفكر الإسلامي. فقد مال العلماء عندنا – كما أشار الأخ الأستاذ محمد قطب – إلى ابن خلدون عندما يتكلم عن علوم الإسلام لا يقصرها على علوم الفقه والعقائد ولا العبادات، وإنما يتكلم عن جميع العلوم التي عرفها عصره حتى وصل إلى علم الاجتماع وعلم الاقتصاد. وكان أول واضع لأسس علم الاجتماع وعلم الاقتصاد. ونُسي ذلك إلى أن جاء أمس أحد المستمعين لينكر علينا الكلام في الاقتصاد ويسأل الأستاذ خورشيد لماذا يتكلمون عن الاقتصاد والأنبياء لم يتكلموا عن الاقتصاد. فهذه نتيجة غرس تجزئة العلوم الإسلامية، وحصر العلوم الإسلامية في علوم دون أخرى طبعاً العلوم تتفاوت في الأهمية، ولكن الشمول يعني أن المجتمع المسلم لا يمكن أن يكون مجتمعاً مسلماً صحيحاً إلا إذا وجه جهود علمائه إلى جميع فروع المعرفة التي تهم المجتمع وتصلح من شأنه. هاتان الخصيصتان أو الصنفان هما في نظري الرئيسيتان اللتان يمكن أن نميز بهما الفكر الإسلامي عن الفكر المنحرف، أو عن الفكر المعادي.

بقي موضوعنا وهو حماية هذا الفكر، لقد أشار الأستاذ محمد قطب إلى وسائل أداء الفكر، وتكلم عن الكتب والصحف ووسائل الإعلام، ومنها الإذاعة والتلفزيون والسينما. ولعله ترك لي أن أتكلم عما يسبق ذلك، وهو المنبع الذي ينبع منه الفكر الإسلامي، وهو رجال الفكر.

فحماية الفكر الإسلامي لا يكفي فيها حماية الكتب الإسلامية، ولا حماية الفكر الإسلامي في وسائل الاعلام والنشر والإذاعة والصحافة والتليفزيون، وإنما يجب أن تبدأ الحماية والتدعيم والتكوين للمفكر المسلم ذاته.

وكل مجتمع ناهض يضع المفكرين في قمة قياداته، ودليل صحة المجتمع الإسلامي كدليل صحة أى مجتمع آخر، وهو أن يأخذ رجال فكره الإسلامي موقعهم الصحيح في قيادة هذه الأمة، وبناء حضارتها وبناء مجدها. فإذا زحزح هؤلاء عن مكان القيادة – وضعوا في =

....

= السجون مثلا ! - فهذا ليس دليل صحة لهذه الأمة ، وإنما هو مرض يجب أن نعالجها منه .

وإذا كنا الآن نفكر في دعوة هذه الأمة إلى المنهاج الصحيح لدعم الفكر الإسلامي: ففي نظري يجب أن نبدأ بدعوتها إلى أن تتنبّه إلى ضرورة الاهتمام بحماية رجال الفكر الإسلامي، وتشجيعهم وتنسيق التعاون معهم ومساعدتهم، وتوفير البيئة الصحيحة لهم لكي ينتجوا الإنتاج الذي يُمكّن هذه الأمة من أن تسير قُدُماً في طريق الصعود، وهي طريق المجد. يكفي أن نلاحظ ما تقوم به الأمم الأخرى لحماية رجال الفكر ودعمهم. فأول وسيلة لدعم رجال الفكر هو توفير الحرية الكاملة لهم في التزود من مناهل العلم، وفي التأليف والكتابة. ولكن بكل أسف، الذي نراه في مجتمعاتنا أنهم الوحيدون الذين يحرمون من هذه الحرية، هم الذين يتجرؤون بالكلام عن القيم الإسلامية وعلى نقد الواقع المسلم الذى يبتعد عن هذه القيم، أو بالعكس من ذلك؛ فإن أعداء الفكر الإسلامي يتمتعون بالحرية الكاملة، ولكن بكل أسف هذه الحرية لا تعطى لهم من دولنا، وإنما تُفرَض على دولنا وحكوماتنا من جهات أجنبية، تتولى حماية هذا الفكر الدخيل، وتتولى حماية أصحابه، وتدافع عنه، وتتجرأ بعض حكوماتنا من حين لآخر لاضطهادهم، فيرفع عليها سوط النفوذ الأجنبي، فتتراجع بكل انتظام، وتعيدهم إلى مقاعد التوجيه في أجهزة الإعلام، وفي أجهزة الصحافة، وفي رئاسة دور النشر، وفي السيطرة على الفكر في المجتمع كله. وهذا هو الواقع في كثير من الدول الإسلامية.

وفي حين أن رجال الفكر الإسلامي « لا يتمتعون بأي حماية إلا حماية الناس، فإذا كان العامة المسلمون في بلد ما لهم كلمة نافذة تمكنهم من حماية رجال الفكر كان بها، أما في البلاد التي تقوم فيها نظم لا تعطي للعامة رأياً في الرقابة على أعمال السلطة فإن اضطهاد السلطات لرجال الفكر الإسلامي لا حد له. هذا وضع قد يكون استثنائياً وقد يكون عابراً، ولكن الظاهرة الأخطر من ذلك والتي أريد أن أنبه إليها هي أن الحكومات في مختلف العصور لها أخطاء، ولها انحرافات، وقد يكون من بينها اضطهاد رجال الفكر، ولكن الظاهرة الخطيرة التي تألمنا لها هي أن المجتمع المسلم انتقلت قيادة الفكر فيه إلى الدخلاء والمنحرفين، =

....

= الذين تكلم عنهم الأستاذ محمد قطب، لدرجة أنهم هم الذين أصبحوا يخططون، ويدعون ويستحثون الحكومات ويستجدونها ويستغفلونها، وينظمون لها حملات لاستئصال الفكر الإسلامي واضطهاد رجاله. ولقد كانت محنة الشهيد الأستاذ سيد قطب تجربة قاسية لا يمكن أن أنساها في هذا المجال.

الحقيقة أن هذه المحنة أظهرت حيوية الأمة الإسلامية، وأظهرت أن مئات الحكومات لا تستطيع أن تقضي على حيوية هذه الأمة. لقد دافع شباب هذه الأمة وعامتها وجميع طبقاتها في جميع الدول الإسلامية عن حرية الفكر، ورجل الفكر، بما في ذلك الملوك والحكام ورؤساء الدول، تدخلوا وتكلموا إلا جهة واحدة لم تنطق، كانت سلاحاً استخدمته الحكومة في تنفيذ خطتها وهم من يسمون أنفسهم رجال الفكر، من المنحرفين والدخلاء والمضللين ومنهم من كان يدعي لنفسه عمادة الأدب ومنهم من يدعي لنفسه إمارة الشعر، ومنهم من يترأس دور النشر، ومنهم من يترأس مراكز التعليم والتربية والثقافة في الجامعات حتى بعض رجال الأزهر سخّروا أنفسهم للإسهام في هذه الحملة. هذه هي الظاهرة الوحيدة السيئة التى لا ننساها والتي ندعو الأمة لتغييرها وفيما عدا ذلك فإن هذه المحنة أثبتت حيوية هذه الأمة، وأثبتت قوة الفكرة الإسلامية وأنها لا يمكن أن تزول.

هذا فيما يتعلق بالحماية. ولا يمكن أن تنفصل الحماية عن التشجيع والتنسيق بين رجال الفكر، فكل الدول تنشئ مجامع ... تمهد لرجال الفكر وسائل العيش، كي يتفرغوا للإنتاج في ميادين العلم المختلفة. وفي العالم الإسلامي حتى الآن لم نجد مثل هذه المجامع ولذلك فإن من واجب الدول الإسلامية وواجب الشعوب الإسلامية أن تعمل على إنشاء مجامع وأكاديميات للفكر عامة، الذي نسميه الفكر الإسلامي. وهذا التجميع هو نوع من التشجيع وإلى جانب ذلك توجد وسائل أخرى لتشجيع الفكر الإسلامي، فنحن نسمع من حين لآخر جائزة نوبل، والتي تُسَخَّر لها أجهزة الدعاية والإعلام في العالم كله لتشجيع المفكرين. وللأسف أنتم تعرفون أن أغلب هؤلاء المفكرين الذين تشجعهم جائزة نوبل يمثلون اتجاهاً فكرياً معيناً، =

....

= هو الاتجاه اليهودي في داخل العالم الإسلامي، نأمل أن توجد جوائز تشجيعية للبحوث الإسلامية، والمؤلفات الإسلامية. كما نعتقد أنه لا بد أن توجد موضوعات ودوائر معارف إسلامية في جميع العلوم الإسلامية، يكتبها علماء مسلمون، وتنشرها الحكومات والمعاهد والجامعات الإسلامية على الأقل لكي تستغنى بها عن دوائر المعارف التي كتبها أعداء الإسلام، والتي هي مجموعة من السموم التي يضطر الباحثون من أبنائنا إلى الرجوع إليها في أبحاثهم وفي دراساتهم لأنهم لا يجدون غيرها. أما فيما يخص حماية الكتب بعد حماية المؤلفين فأترك هذا للموضوع لأستاذنا الدكتور أحمد علي (*).

(*) اكتفينا بنشر كلمة الدكتور توفيق الشاوي – فقط – لارتباطها بكلمة الأستاذ محمد قطب. ومن أراد التفصيل فليراجع:

أبحاث ووقائع اللقاء الثاني للندوة العالمية للشباب الإسلامي « الناشر ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الفكر الإسلامي كبديل عن الأفكار والعقائد والأيديولوجيات المستوردة

الإسلام.. وليس الفكر الإسلامي:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أفضل المرسلين.

أحمد اللهَ إليكم وأشكره، وأقول: إنني أستشعر من هذا الجمع مسؤولية ضخمة أمام الله أرجو أن يعينني الله عليها، فإن قلوبكم قبل عقولكم تستلزم مني أن أَزِنَ كل كلمة أقولها، وإن هذه لمسؤولية ضخمة، وإنه لجهد، وأرجو الله أن يعينني فإنه لا يستعان في هذا إلا الله.

أبدأ فأستأذن اللجنة الموقرة التي وضعت برنامج هذه الندوة وحدّدت لي موضوعاً معيناً، أستأذنها في أن أُدخل تعديلاً طفيفاً في موضوع المحاضرة - أوفى أقل تقدير أن أُحدّد مفهومي أنا لهذه المحاضرة - المحاضرة تقول: الفكر الإسلامي كبديل عن الأفكار والعقائد أو الأيديولوجيات المستوردة، وأنا أقول: بادئ ذي بدء إن البديل لهذه العقائد المستوردة ليس هو الفكر الإسلامي وإنما هو الإسلام ذاته، الإسلام بكل شموله بكل واقعيته... بكل جديته... بكل حيويته... هو البديل لهذه العقائد المستوردة، وليس الفكر الإسلامي.

إن الذين يحاولون التأثير على شبابنا، إن الذين يدخلون في عقول شبابنا هذه الأيديولوجيات لا يدخلون بها كفكر؛ إنما يقصدون من ورائها قصداً معيناً، يقصدون أن يخلخلوا عقائد هؤلاء الشباب، وأن يزلزلوا انتماءهم إلى الإسلام، ثم بعد ذلك يجندوهم للعمل في هدم الإسلام.

ليست إذاً مسألة فكر بفكر، إنما هي سياسة كاملة يقصدها أعداؤنا حين يدخلون هذا الفكر، فينبغي أن نواجهها بسياسة متكاملة لا بفكر مجرد.

* * *

شمــول الإسـلام

وحقيقـة أن للإسـلام فكراً - أي تصوراً - وأن للإسـلام نظاماً، ولكـنه لا ينبـغي لنا قط أن نتحـدث عن الفكر الإسـلامي مـجرداً، ولا عن النظام الإسلامي مجرداً، إنما نتكلم عن الإسلام في حقيقته الربانية: إنه عقيدة ينبثق منها تصور فكري، وعقيدة ينبثق منها نظام، ولكنها ليست فكراً خالصاً ولا نظاماً مستقلاً، وأنا أعلم أن كثيرين ممن عاشوا في الغرب وواجهوا تحديات معينة يريدون منا أن نقدم تصوراً فكرياً للإسلام، وأن نتحدث عن النظام الإسلامي، وأقول: إنه لا ينبـغي لنا أن نستـدرج إلى هذا، ينبـغي أن نقـدم الإسلام على حقيقته الربانية؛ لا أن نلوي عنق الإسلام لكي يوافق حاجات معينة لناس معينين.

إننا نتأثر بحبنا لأن يؤمن الغرب بالإسلام، والغرب مادي، والغرب كـما يقول عن نفسه: « براجماتيك »، يعني أنه يبحث عن الناحية الواقعية النفعية من أية فكرة، لا يؤمن بالفكرة إلا إذا عرف مقدار نفعها له في حياته الدنيا، فإذا كان الغرب هكذا هل يجوز لي أن ألوي عنق الإسلام أو أن أحرفه ليوافق هذا المزاج المنحرف؟ لكي تقبل أوروبا على الإسلام؟

لا....

إن أوروبا إذا أرادت أن تسلم - أو إذا أردنا نحن لها أن تسلم - فينبـغي أن تدخل الإسلام من بابه، من بابه الرباني: و هو باب العقيدة، ثم بعد ذلك نتحدث لأوروبا - وللعالم أجمع - عن التصور الإسلامي الفكري، وعن النظام الإسلامي الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.... إلى آخر الأنظمة الإسلامية،

ولكن لا نتحدث عنها أبداً مجردة منفصلة.

إننا إذا استجبنا للغرب حين يطلب منا أن نقدم له النظام الإسلاميّ- وإذا لم نقدم له النظام لا يؤمن! - إذا استجبنا له فإننا نحصر الإسلام إذاً في دائرة ضيقة؛ لأن الغرب يبحث - أو الرجل الغربي المادي « الواقعي النفعي » - يبحث عن النفع في الحياة الدنيا، وإن في الإسلام لنفعاً في الحياة الدنيا، ولكنه ليس محصوراً في نفع الحياة الدنيا، لقد نزل لخير الدنيا والآخرة، فهل استجابة للعقل الغربي المنحرف أحصر الإسلام في نفع الدنيا وأحجب النفع الأكبر وهو نفع الآخرة، ويكون هذا إسلاماً بعد ذلك؟!

كَلا ....

إنما ينبغي أن أقدّم الإسلام لمن يرغب فيه إسلاماً كاملاً فيه خير الدنيا والآخرة، وذلك بأن أقدّمه عقيدة، ثم أقدم له بعد ذلك التصور الإسلامي الفكري، الذي يُدعى أيديولوجية، ثم أقدم له النظام الإسلامي في صُور نظام سياسي واقتصادي واجتماعي.... إلى آخر النظم التي يشتمل عليها الإسلام، إنما العقيدة أولاً، فإذا قالت أوروبا أنها لا تريد العقيدة: هذا شأنها! ولا حيلة لنا في ذلك! ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهـدِي مَن يَشَاء ﴾ [سورة القصص: آية ٥٦].

ولقد حذّر القرآنُ رسولَ الله ﷺ من أن يتنازل عن شيء من الإسلام لكي يؤمن الآخرون، وقال: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [سورة القلم: آية ٩]. وموقفنا هو:

لا نداهن بهذا الإسلام، إنما نقدّمه على حقيقته: عقيدة - عقيدة توحيدية - توحيد الله وعدم الإشراك به ، فمن قَبِلَهُ على هذه الصورة فمرحباً به في

الأرض والسماء، ومن لم يرد أن يقبله إلا إذا شرحتَ له النفع الأرضي الذي يترتب على دخوله في الإسلام فهذا ليس مُسْلِماً في الحقيقة!

لأنه حين نقدم له الإسلام من جانب النفع، ومن جانب النظام ومنافعه، فقد يجادل، يقول: لا، الشيوعية تعطيني منافع أكثر من هذا... أو الديمقراطية تعطيني منافع أكثر من هذا...

ما دام الحكم هو المنفعة وتقديم المنفعة مردود إلى الهوى الشخصي فقد يميل به الهوى هنا أو هناك.

أما حين يكون عقيدة :فهي نعم أَوْ لاَ، حاسمة لا تحتمل التردد.

وأوروبا اليوم في جاهليتها تقول إنّ العقيدة هى آخر شيء نفكر فيه، إنّا نريد نظاماً ينظم لنا حياتنا، نريد تنظيماً اقتصادياً، وتنظيماً سياسياً، تنظيماً اجتماعياً، تنظيماً فكرياً ندخل فيه، أما هذه العقيدة فآخر ما نفكر به. فهل عليّ – أنا المسلم الداعي – أن أجارى هذا الانحراف وأقدم لأولئك المنحرفين طلبهم لكي يغريهم بأن يسلموا على أمل أنهم حين يسلمون يدخلون في العقيدة؟! ليس هذا هو منهج الدعوة.... مرة أخرى: ﴿ **وَدّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنونَ** ﴾ [سورة القلم: آية ٩].

* * *

العقيـــــدة أولاً

وأمر العقيدة ليس أمراً ثانوياً حتى نؤجله أو نؤخره إلى حين يقتنع الناس بالفوائد العملية للإسلام، المسألة هي هنا في داخل الضمير، الكائن البشري عابد بفطرته، لابد بفطرته أن يتوجه إلى خالقٍ ما يتصوّره، سواء ضلت الفطرة أو اهتدت هناك مكان في القلب البشري يتوجه بالعبادة.

وليس الفرق بين بشر وبشر أن أحدهما يعبد والآخر لا يعبد؛ الفرق بين بشر وبشر هو أن واحداً منهما يعبد الله على حق والآخر يعبده على غير حق، ولكن لا يوجد بشر - حتى في روسيا الشيوعية الملحدة - لا يوجد هناك منَ لا يعرف للكون خالقاً، ولا يتوجه لهذا الخالق بنوع ما من العبادة. إنه لم يُرسَل رسول في تاريخ البشرية كلها ليقول للناس إن هناك إلهاً فاعبدوه... أبداً، راجعوا الكتب السماوية كلها ما حُرِّف منها وما لم يُحرَّف، إنما يبعث الرسل ليقولوا: لا إله إلا الله، ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ [سورة الأعراف: آية ٥٩ كما وردت في آيات أخرى كثيرة].

فالقضية ليست هي قضية وجود الله أو عدم وجود الله... الإيمان بأن للكون خالقاً أو عدم الإيمان بأن للكون خالقاً... إنما المسألة هي: توحيد هذا الإله أو الشرك به.

هذه هي المشكلة منذ أبناء آدم الأوائل إلى يومنا هذا، إلى أن تقوم الساعة، يوحدون الله أو يشركون به، تلك هي القضية الكبرى في حياة البشرية، وهي التي يترتب عليها كل منهج الحياة في واقع الأرض، إنه يترتب على هذه

القضية الكبيرة الهامة: أنعيش على منهج الله مستمدين تفاصيل حياتنا من المنهج الرباني، أو نعيش على مناهج أخرى من صنع البشر، مناهج يسميها القرآن عبادة للشيطان ؟

إذاً هذه القضية لا يجوز أبداً أن نؤخرها أو نؤجلها أو نُصَغّر من شأنها لكي نقدم للناس تصوراً إسلامياً أو نقدم للناس نظاماً إسلامياً، إنما نقدم التصور الفكري، ونقدم النظام من خلال العقيدة لأنه هكذا شاء المنهج الربانى.

* * *

ولقد يقال لنا إن هذه بالنسبة للمسلمين على الأقل قضية منتهية، فالناس كلهم يوحدون الله، إذاً نصلح ما فسد من رؤوسهم بسبب الغزو الفكري فنعطيهم التصور الإسلامي الصحيح الذي ندعوه الفكر الإسلامي بدل الفكر الدخيل المستورد، وأقول مرة أخرى: كلاً... إن القضية حتى بالنسبة للمسلمين أنفسهم ليست منتهية، فما دام هناك مسلم يتصور أو يتوهم أنه يستطيع أن يظل على إسلامه وهو يطبق نظماً ليست من عند الله فالقضية إذاً لم تنته بعد، والقضية في حاجة إلى الحديث، وفي حاجة إلى التوكيد، وفي حاجة إلى الإبراز من باب العقيدة، لا من باب الفكر، ولا من باب النظام.

إنه ينبغي أن نعود – نحن – إلى فَهم إسلامنا الصحيح، وعقيدتنا الصحيحة، حتى يخرج من أذهان مَنْ دخل في ذهنه أنه يستطيع لحظة واحدة أن يكون مسلماً ومؤمناً وهو يطبق راضياً مناهج جاهلية ليست من صنع الله، وكل ما ليس من صنع الله فهو جاهلية، لأن الله يقول: ﴿ **أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [سورة المائدة: آية ٥٠].

فيقسم أنواع المناهج وأنواع التوحيد إلى قسمين اثنين: حكم من عند الله ومنهج من عند الله أو حكم جاهليّ ومنهج جاهليّ. فما دام فينا – بسبب أو بآخر – مَنْ يتصور أن الإسلام أن ينطق بلسانه لا إله إلا الله أو على الأكثر أن يؤدي بعض العبادات في المسجد وينتهي مطلوب الإسلام منه عند هذه النقطة وله بعد ذلك أن يسيح في الأرض ما يشاء... يأخذ ما يشاء... يأخذ من روسيا

مرة ومن أمريكا مرة ومن ألمانيا مرة ومن إنجلترا مرة... يأخذ ماذا.... يأخذ نظام الحياة! - ما دام فينا مَنْ يتوهمُ هذا الوَهْم فلا بد أن نحدثه ونظل نحدثه عن الإسلام من باب العقيدة، وأنه لا ينبغي هذا، إن للإسلام تصوراً فكرياً، ولا يمنعنا هذا أبداً أن نتحدث للناس عن التصور الفكري الإسلامي - ولا ينبغي هذا كذلك - إن للإسلام نظاماً اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً.... إلى آخره، ولا يمنعنا هذا أن نتحدث للناس عن النظم الإسلامية، ولكن متى؟ بعد أن يتضح في أذهانهم ووجدانهم حقيقة معنى لا إله إلا الله: وهو اتباع ما أنزل الله، وليست هي كلمة تقال باللسان يسرح الإنسان بعدها، يأخذ من المناهج الجاهلية ما يشاء!

* * *

تصحيـح العقيـدة تدريجياً

أمر آخر أحتاج أن أقرره قبل الدخول في الموضوع الرسمي الذي وُكِّل إليّ:

أقول: إن بعض العبارات التي أنطق بها أَعْجَبُ أحياناً كيف لم تُفهم على وجهها! مع أني أتحرى أن أقولها في بساطة وفي دقّة، ولكنني أعود إلى القاعدة الطبيعية الموجودة في علم الطبيعة، وهي أن الضوء ينكسر حين يخرج من وسط إلى وسط، فالفكر - كذلك - يعاني مثل هذا الانكسار أحياناً حين يخرج من عقل إلى عقل، أو من قلب إلى قلب. فأنا محتاج أن أحدد أشياء معينة أجد أنها لا تفهم على حقيقتها:

حين أقول « العقيدة أولاً » فإن بعض الناس يتصور أنني أدعو لوقف النشاط البشري كله حتى نصحّح العقائد البشرية ثم ننطلق بعد ذلك في التصنيع وفي التعليم وفي الزراعة وفي التجارة. ولكن كيف نوقف هذا النشاط كله حتى نمسك الناس واحداً واحداً ونصحح لهم عقائدهم؟! هذا لا يتصوره عاقل، وليس هذا الذي أقصده.

فلنأخذ مثالاً من واقع المسلمين: لقد ظل القرآن يصحح عقائد المسلمين إلى وقعة أُحُد - بل إلى وقعة حُنَين - ، فقد كان في تصورات المسلمين العقيدية ما يحتاج إلى تصحيح، وكان يتنزل القرآن بتصحيح هذا المعتقد الإيماني عند المؤمنين أنفسهم، فهل طلب القرآن من الناس أن يتوقفوا عن نشاطهم الاقتصادي والتجاري والعلمي والحربي والسياسي... إلخ حتى

يصححوا هذه العقائد؟ أبداً إنما كان يسير النشاط كله ثم يأتي التصحيح في أثناء الركب الحي، كذلك حين أقول: « العقيدة أولاً » أقصد الأولوية في الأهمية، إنه ينبغي أن نضعها في مقدمة كل شيء، وليس معنى قولي هو أن نتوقف عن كل نشاطنا التعليمي أو الصناعي حتى نصحح عقائد الناس!

ومن جهة أخرى ليس تصحيح العقيدة بديلا عن النشاط التجاري والصناعي وكذا وكذا وكذا، كما يفهم بعض الناس حين يقول: افرض أنَّا صححنا عقائد الناس، فكيف نواجه الأعداء بالقوى المادية ونحن لا نملك قوى مادية، كيف نصنع بالاقتصاد المتخلف الذي تعيش فيه بلادنا؟... كأنما فهموا من قولي: « إننا يجب أن نعمل لتصحيح العقيدة » أن العقيدة – تلقائياً – ستصنع مدافع وستصنع مصانع.... إلخ

وهنا أقول: نَعَم وَلاَ، نعم... العقيدة تصنع ذلك، ولا... أنها لا تصنع ذلك من تلقاء نفسها، ولكن بجهد بشري. كيف هذا التناقض بين نعم ولا؟ أفكر في كلمة أن العقيدة دافع قوي جداً يدفع البشر لأن يقوموا بالتصنيع وبالتعليم وبكل النشاط الحيّ، ولا يوجد دافع، وهذه تجربة تاريخية، ما يملك أنْ يدفع الناس إلى الإِنتاج الأرضي المادي مثل العقيدة الصحيحة؟! رأينا ذلك في الجيل الأول من المسلمين، كيف كانت عقيدتهم هي الباعثَ الذي بعثهم يعمرون الأرض وينشرون النور ويتعلمون ويصنعون كل الإنجازات الضخمة التى قاموا بها بباعث من العقيدة. ورأيناها في الأجيال القديمة، رأينا المسلم الحق طالباً في المدرسة أو الكلية متفوقاً على كل أقرانه، لأنه يحس أنه لابد أن يتفوق، يحس بدافع من عقيدته أنه لابد أن يتفوق، فيتفوق، فتكون العقيدة هي الدافع له لأن يبذل نشاطه.

هذه إجابة نعم.

ولا: إن العقيدة لا تصنع هذا تلقائياً، بمعنى أنني حين أملأ قلب إنسان بالعقيدة أنظر فأجد مدفعاً قد خرج من المصنع وطيارة وسيارة، ليس هذا هو التفكير المنطقي المعقول الرزين الذي يمكن أن ينطق به إنسان عاقل، إنما نقول أنه لابد من جهد بشري، جهد وتعب ومشقة يبذلها الناس لكي يصلوا إلى الإنتاج المطلوب.

إنما تظل العقيدة هي الدافع الأكبر.

* * *

الغربة الثانية

هذه كلها كمقدمات رأيت أني محتاج إلى تقريرها قبل أن أتحدث عن الفكر الإسلامى، ولن أتحدث عنه كبديل للفكر المستورد، إنما فقط علينا أن ندرس التصور الإسلامي، وأن ندرس النظام الإسلامي كَمُعين لنا في التعرف على إسلامنا فإننا - والحق يقال، ينبغي أن نواجه بهذه الحقيقة أنفسنا - نعيش في غربة، غربة الإسلام الثانية التي حدَّث عنها رسول الله ﷺ حين قال: « بَدَأَ الإِسلامُ غَرِيباً وسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ »[1].

نحن الآن - ولا شك - في الغربة الثانية التى تحدث عنها رسول الله ﷺ، وموقفنا في الغربة الثانية هو موقف المؤمنين في الغربة الأولى، كيف صنعوا والإسلام غريب؟ لقد تمثّلوا الإسلام حياً في نفوسهم، وطبقوه في حياتهم، ثم دعوا إليه، ثم جاهدوا في سبيله.

والمؤمنون اليوم في الغربة الثانية مكلّفون أن يصنعوا ذات الشيء: أن يتمثلوا الإسلام واقعاً حياً في نفوسهم، وفي واقع الأمر، ثم يدعون إليه، ثم يجاهدون في سبيله. في هذا نتحدث عن الفكر الإسلامي - أو كما أحب أن أُسميه: «التَّصَوُّر الإسلامي » - نتحدث عنه كمُعين للتعرف على إسلامنا وليس بديلا لنا عن الإسلام ولا عن الفكر الغربى المستورد، إنما هو في حدوده هذه معين

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٥/٢٣٢) كتاب الإيمان، باب: « بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً.... ».

على التعرف على الإسلام. أما «الفكر للفكر»: فهذا شعار ليس إسلامياً، الفن للفن والفكر للفكر والحياة للحياة... إلى آخر هذه الشعارات... إنها شعارات جاهلية لا يعرفها الإسلام، إنما يعرف الإسلام أن يكون الفن، وأن يكون الفكر، وأن تكون الحياة ،وكل النشاط البشري، أن يؤدي إلى غاية، تؤدي إلى عبادة الله، لأن الله يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ ليعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات: آية ٥٦] فحصر حياتهم كلها في هذين النفي والاستثناء: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ ليعبُدُونِ ﴾.

وهو تعبير عربي مبين معناه أن حياة الإنسان مقصورة ومحصورة فى العبادة، فينبغي إذاً أن يكون كل عمل يقوم به الإنسان هو جزءًا من هذه العبادة: عمارة الأرض هو جزء من العبادة، التعلم جزء من العبادة، المشي في مناكب الأرض والأكل من رزق الله جزء من العبادة، تسخير طاقات السموات والأرض للإنسان جزء من العبادة، إقامة شريعة الله في الأرض جزء من العبادة، الجهاد في سبيل الله جزء من العبادة... وهذا هو المفهوم الشامل للعبادة الإسلامية، لا شعائر التعبد فحسب، المفهوم الشامل الذي نزلت به الآيات: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِين * لاَ شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِك أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسلِمِين ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٦٢، ١٦٣].

هذا هو المفهوم الإسلامي للعبادة: صلاتي ونسكي: أي شعائر التعبد، ومحياي ومماتي: أي حياتي كلها بكل أوجه نشاطها إلى الموت، والموت ذاته في سبيل الله.

وهكذا يحقق الإنسان المسلم العبادة الربانية، فالفكر في الإسلام هو جزء من هذه العبادة، وينبغي أن يؤدي إلى تحقيق العبادة.

ومن ناحيةٍ أُخرى الفكر في الإِسلام مُجرّداً لا وجود له ولا قيمة له، نراجع آيات الله: أعـوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ إنَّ فـي خَلْقِ الـسَّمَوَاتِ والأرضِ واختِلافِ اللَّيْلِ وَالـنَّهَارِ لآيَاتٍ لأولي الألـبَاب * الَّذينَ يَذْكُرون اللَّهَ قِيـامًا وَقُعُودًا وعلى جُنُوبِهِم ويَتَــــفَكَّرونَ فِي خَلْقِ الـسَّمَوات والأرضِ ربَّنَا مَا خَلَقتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحـانَكَ فَقِنَا عَذَاب النَّار * ربَّنا إنَّكَ مَن تُدخِلِ النَّارَ فَقَـدْ أَخْزيتَهُ وَمَا للـظَّالِمينَ مِنْ أنصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادي للإِيمانِ أَنْ آمنوا بربكـم فـآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لنا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبرارِ * رَبَّنَا وآتِنـا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَـامـةِ إِنَّك لاَ تُخْـلِفُ المِيعَاد * فَاسْتَجــابَ لَهُم ربُّهم ... ﴾ [سـورة آل عـمران: الآيات من ١٩٠- ١٩٥].

درس تـــربـــوى:

هنا وقفة نقف عندها لأن النص القرآني يلفت نظرنا بشدة إلى درس تربوي توجيهي، هؤلاء قوم مؤمنون ولا شك يتوجهون إلى الله بالضراعة والدعاء، إنهم قوم يتفكرون في خلق السموات والأرض ويتدبرون، فينتهي بهم هذا التفكر وهذا التدبر إلى إدراك أن الله لم يخلق هذا الكون باطلا، فيقـولون: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا باطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ يسبحون الله، وإذ عرفوا أن الله لم يَخْلُقْ هَذا الكون بَاطِلاً - أَي خَلَقَه بالحق - فقد أدركوا أن الحياة الدنيا لا يمكن أن تكون هي نهاية الحياة، لأنه حين تكون الحياة الدنيا هي النهاية لا يتحقق الحق الذي

يتحدث عنه الله الذي خلق السموات والأرض، فإننا نرى ظالمين يظلون ظالمين ومُمكَّنين في الأرض حتى موتهم. ليس هذا هو الحق الرباني. ونرى مؤمنين مخلصين مستضعفين في الأرض مشردين مهانين يتولاهم الأعداء بالتشريد والتعذيب والاضطهاد حتى يموتوا هكذا، ليس هذا هو الحق الذي خلق الله به السموات والأرض، إنما كيف يحق هذا الحق؟ يحق هذا الحق حين تتم الصورة، حين نضيف إلى الحياةِ الدنيا الحياةَ الآخرة، حين نؤمن بالبعث وبالحساب وبالجزاء، حين يأخذ هذا الطاغية حسابه في جهنمَ، ويأخذ هذا المؤمن جزاءه في النعيم، هنا يحق الحق.

وهذا الذي أدركه القوم الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض، وحين قالوا: ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك** ﴾، قالوا: ﴿ **فقنا عذاب النار** ﴾، لأنهم أدركوا أن هناك بعثًا يوم يُحِقّ الله الحق ويبطل الباطل، ويثيب المحسن ويعاقب المسيء، عندئذ يحق الحق كاملا، فاستعاذوا بالله واستجاروا من عذاب النار: ﴿ **فَقِنَا عَذَابَ النَّار** ﴾. وكأنما يُقَدِّمون بين يدي ربهِم مؤهلات تؤهلهم لطلب المغفرة، يقولون: ﴿ **ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا** ﴾، والفاء للتعقيب السريع، أى كأنما يُريدون أن يقولوا بمجرد أن سمعنا ﴿ **فآمنا** ﴾ أسرعنا للإِيمان، وبناء على ذلك يتضرعون إلى الله أن يغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، وأن يعطيهم ما وعدهم على رسله، ولا يخزيهم يوم القيامة ﴿ **فَاستَجَابَ لَهُم رَبُّهُم** ﴾ متى استجاب سبحانه؟ الآية تحدثنا، هل أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه استجاب لدعاء هؤلاء الناس وهم يتفكرون؟ وهم يتدبرون؟ وهم تمتلئ قلوبهم بمشاعر الإيمان ومشاعر الاستعطاف لله سبحانه وتعالى؟ لا، لم يقل الله سبحانه وتعالى أنه استجاب لهم حينئذ، إنما قال:

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُمْ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ﴾ إذاً هنا اللفتة، أن التفكر وحده لا قيمة له، وإن التدبر وحده لا قيمة له، وأن المشاعر وحدها لا قيمة لها، ما لم تتحول هذه كلها إلى عمل ملموس في واقع الأرض . ولأن هذه السُّورة – سورة آل عمران – مشغولة من أولها لآخرها بقضية المعركة – أي الجهاد في سبيل الله – فقد أوردت فيها نماذج من الأعمال التي تؤهل لمغفرة الله، قال سبحانه: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبهم أني لا أُضيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُم مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثى بَعْضُكُم مِن بَعض فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخرِجُوا مِن دِيارِهم وَ أُوذُوا فِي سَبِيلي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِم وَلأُدخِلَنَّهُم جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ ثَوابًا مِنْ عِند اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوابِ ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٩٥] .

هذا الدرس معناه أن الفكر وحده ليس في ميزان الإسلام بشيء، والتدبر وحده ليس في ميزان الإسلام شيئاً ما لم يتحول إلى فَهْم. ليس لأن الفكر ليس ثميناً في نظر الإسلام، ولا أن المشاعر غير ثمينة في تقدير الإسلام، ولكن الإسلام نظام متكامل لا يقبل من الإنسان أن يعمل بجزء منه، بل يريد منه أن يتكامل فكراً وشعوراً وعملاً وسلوكاً، عند ذلك يكون هو الإنسان الذي خلقه الله ليكون خليفة عنه في الأرض. أما حين يتفكر تفكراً مستقلاً منقطعاً، أو حين يتدبر، أو حين تجول في قلبه المشاعر ثم لا تنتهي بالعمل: فهي ذاهبة هباء، وهو مسخ وتشويه للكائن البشري.

إذاً بعد هذا كله نتحدث عن التصور الإسلامي– أو ما يسمى بالفكر الإسلامي – لا كبديل عن الأيديولوجيات المستوردة، ولكن كمعين لنا فقط على تَفَهُّم الإسلام، لكي نمارس إسلامنا كاملا ونقدمه للبشرية كاملا.

خصائص التصور الإسلامي

التصور الإسلامي فريد متميز لا يشابهه شيء على وجه الأرض على الإطلاق مما صنعه البشر في ماضيهم أو حاضرهم أو ما يتصور أن يصنعوه في مستقبلهم. يتميز بخصائص الشمول والتكامل والتوازن. ولا عجب في ذلك في النظام الرباني، أما تلك الأنظمة البشرية التي يضعونها لأنفسهم من وحي أفكارهم أو وحي أهوائهم فلا يمكن بحالٍ أن تتصف بهذه الصفات؛ لأن هذا من صنعة الله وهذا من صنعة البشر ﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً** ﴾ [سورة البقرة: آية ١٣٨].

* * *

الشمــــول:

يشمل هذا المنهج الرباني كلَّ حياة الإنسان، وكلَّ نفس الإنسان، لا يأخذ عقله دون روحه، ولا يأخذ وعيه والقوى المعنوية فيه ويترك الجانب الفكري، لا يأخذ دنياه ويترك آخرته، ولا يأخذ اقتصادياته أو اجتماعياته أو سياسياته ويهمل أخلاقياته... كلا... إنه شامل لكل كيان الإنسان النفسي، وشامل كذلك لكل واقعه العظيم. الإنسان - وحده - هكذا خلقه الله: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [سورة ص: آية٧١، ٧٢].

وهكذا خُلق الإنسان أول مرة قبضةً من طين الأرض، ونفخة من روح الله، هكذا مترابطتين ممتزجتين ،حتى أصبحتا عنصراً واحداً، كل من جاء يحاول تمزيق هذا الكيان الموحّد فيتعامل معه قبضة من طين منفصلة أو نفخة من روح

منفصلة فإنه أولا يمسخ هذا الكائن وثانياً لا يؤدي به إلى شيء.

الحضارات أو النظم أو الأيديولوجيات - أو سَمُّوها كما تسمونها - التي تأخذ جانباً من الإنسان، تأخذ قبضة الطين وحدها، كما تفعل أوروبا في جاهليتها اليوم، أو تأخذ نفخة الروح وحدها كما فعلت جاهليات التصوف الهندي أو البوذي إلخ... كلاهما مخطئ؛ لأنه يأخذ جانباً من الإنسان يحاول أن يضخّمه على حساب الجانب الآخر.

الأيديولوجيات المادية التي تردنا من الغرب تتعامل مع الواقع الحسي، أو تتعامل مع الجانب الحيواني للإنسان، أو تريد أن تفسر الإنسان تفسيراً حيوانياً ثم تضع له نظماً تتوافق مع هذا التفسير الحيواني. والجاهليات الروحانية تأخذ الجانب الروحي من الإنسان وتضخمه جداً وتحسب أنها بهذا ترتفع به، وإنها بالفعل قد تحدث في داخل النفس إشراقات نورانية ولكنها في النهاية تدمر هذا الإنسان وتشوّهه، لأنها حينما تضخم روحه تلغي جانبه الفكري والمادي فيحدث التخلف الاجتماعى والاقتصادي، ثم أخيراً يحدث التخلف الروحى أيضاً، كما حدث في الرهبانية: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ - هي ليست من عند الله - ﴿ وَرهبانِيةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِم إلاَّ ﴾ - إلا: استثناء منقطع - ﴿ ابْتغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِهَا ﴾ [سورة الحديد: آية ٢٧]. هذه النهاية حتمية لكل انحراف روحاني أنه ما يمكن تنفيذه في الأرض، ما رعوها حق رعايتها. ودخل في هذه الرهبانية... ودخل في أديرة الرهبان والراهبات أشياء بشعة لا توجد في الحياة السابقة في الخارج، هذه نتيجة أَخْذ جانب من الحياة دون جانب آخر.

الإنســان على طبيعتــه:

هنا تظهر نتيجة هذا النسيج... نسيج المنهج الرباني الكامل الذي يأخذ الإنسانَ على حقيقته ... حقيقته الربانية كما خلقه الله: قبضةً من طين ونفخةً من روح الله، مترابطتين ممتزجتين في عنصر واحد في المستقبل، هذا العنصر الواحد المتكامل المترابط يُنزل له اللهُ شريعة ومنهجاً مفصلة على قَدِّه[1] تماماً من عند صانع هذه الفطرة وهو العليم بها ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [سورة الملك : آية ١٤]، إنه العليم الخبير، إنه اللطيف الخبير، يُنزل من عنده شريعة ومنهجاً، تتنزل لهذا الكيان البشري، تتنزل له مفصلة على قَدِّه تماماً فيلبسها ويستريح لها، يسير بها وينشط بها، لا يحس ثقلها؛ بل يحس بها دافعاً إلى العمل. هذا المنهج الرباني يأخذ جسده وروحه في آن واحد، يأخذ الجانب المعنوي والجانب الحسي، لا يهمل هذا ولا ذاك ،ولا يضحي بهذا ولا ذاك.

إذا كانت الصلاة في كل عبادة هي عنوان هذه العبادة التي يتمثل فيها خلاصة المنهج، فالصلاة الإسلامية هي تعبير عن المنهج الإسلامي، الصلاة الإسلامية يشارك فيها الكائن البشري بِكُلِّه، الروح تشارك بالخشوع لله، بالتجرد لله، بالاتصال النوراني بالله، بالاتصال الروحي بالله، والعقل يشارك بالوعي، « لَيْسَ لَكَ مِن صَلاَتِكَ إِلاَّ مَا وَعَيْتَ » أو كما قال رسول الله ﷺ[2].والجسد يشارك بالقيام والقعود، فالإنسان كله في هذه الصلاة التي

---

(١) **القَدُّ**: المقدار، يقال: هذا على قدّ ذاك: على مقداره، « من المعجم الوجيز ».

(٢) **لا يوجد مرفوعاً**. لم أره بهذا اللفظ، وذكره الغزالي في الإحياء (١/١٥٩، ٢١٨)=

تُمثّل المنهج الرباني يشترك بكله بعقله وروحه وجسده، وهو عنوان للمنهج كله، والمنهج كله يتعامل مع الإنسان في هذا الشمول وهذا التكامل.

الدنيا مزرعة الآخرة:

وكما يوحّد هذا المنهجُ الرباني الرُّوحَ والجسدَ في كيانه: يوحّد الدنيا والآخرة في كيان.. في طريق... ليس هناك في الإسلام عمل يُعمل من أجل الدنيا وعمل آخر يُعمل من أجل الآخرة، كل أعمال الإنسان تعمل من أجل الدنيا والآخرة في آن واحد، إنه طريق واحد وليس طريقين اثنين، طريق واحد

= بلفظ: « ليس للعبد – للمرء – من صلاته إلا ما عقل منها » وقال العراقي: لم أجده مرفوعاً، وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً: « لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه ».

ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أُبيّ بن كعب، ولابن المبارك في الزهد موقوفاً على عمار: « لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه » اهـ . وكذا قال الزبيدي في الإتحاف (١٧٤/٣). وحديث عمار في الزهد (رقم ١٣٠٠) لابن المبارك، وسنده ضعيف.

وأخرج أحمد وأبو داود وابن حبان عن عمار بن ياسر مرفوعاً: « إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عُشر صلاته، تُسعها، ثمنها... رُبعها، ثلثها، نصفها » وهو حديث حسن.

وقد أخرج أحمد (٢٠٤/٣) بسند صحيح عن أنس مرفوعاً بلفظ: « لتصلِّ ما عَقلتْ فإذا غُلِبَتْ فلْتَنَمْ ». وقد ورد أيضاً حديث: « ليس لك من صلاتك إلا ما لغوت » ونحوه، من حديث أبي هريرة وأبي بن كعب وأبي ذر وأبي الدرداء وغيرهم رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين.

أوله هنا في الدنيا وآخره في الآخرة، كما يحدث رسول الله ﷺ: « الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الآخِرة » [1]، فهي هذه الصلة بين الدنيا والآخرة.

يخيل إلينا أحياناً أن هناك أعمالاً أخروية بحتة، أول ما يتبادر إلى أَذْهَاننا الصلاة - الصلاة لله ... للآخرة... لكى نتقرب بها إلى الله ... لكي يدخلنا الجنة ... نعم، ولكن القرآن يقول: ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عن الفَحْشَاءِ والمُنكَرِ ﴾ [سورة العنكبوت: آية ٤٥] هنا في الدنيا، أيْ، وهي عمل موجه للآخرة... نعم، عبادة للآخرة، ولكن القرآن يقول: ﴿ كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذينَ مِن قَبلِكُم لعَلَّكُم تَتَّقونَ ﴾ [سورة البقرة: آية ١٨٣]، أى أن هناك أثراً فعلياً للصيام في الحياة الدنيا.

عبادات الإِسلام كلها على هذا النحو... أمر يتوجه به إلى الله في الآخرة وله أثر في الحياة الدنيا.

من الجانب الآخر في الأعمال الدنيوية - أو التي نسميها دنيوية- قد يخطر على بالنا أنها منقطعة الصلة عن الآخرة، إنسان يتزوج، إنسان يعمل، إنسان يتعلم، إنسان ينتج إنتاجاً مادياً في الحياة الدنيا، ما صلة هذا بالآخرة؟

هذا من شئون الدنيا... نعم من شئون الدنيا، ولكن لله التزامات مُعَينة فيه، حين تُرْعَى هذه الالتزامات ينتقل هذا العمل من كونه دنيوياً إلى كونه دنيوياً أخرويا ... الإِنسان يتزوج، هذا ربما كان في نظر الناس ألصق الأشياء بالأرض، وألصق الأشياء بالحياة الدنيا، نعم حين يلتزم الإنسان في زواجه بالحلال الطيب، وحين يطلب من الله النسل الطاهر، وحين وحين وحين، فهذا عمل

---

(١) **لا أصل له**. وانظر الحديث عنه هنا (ص ١٣٦) في مقال: « الإعلام الإسلامي » (رقم ٥).

يعمل في الدنيا ويُتَوجَّه به إلى الله في الآخرة.

التكــــامــــل:

وهكذا الإسلام كله، كما وَحَّد الروح والجسد كذلك وَحَّد طريق الدنيا والآخرة فصار طريقاً واحداً لا طريقين اثنين، ولم يَعُد هناك عمل يعمل من أجل الدنيا وحدها ولا عمل يعمل من أجل الآخرة وحدها. وكما وَحَّد الله بين هذين وَحَّد في نظامه أو في التصور الذي يعطيه بين كل نشاطات الكائن البشري، لا شيء اسمه – كما تقول الجاهلية الغربية المعاصرة – اقتصاد مستقل بذاته له قوانينه الخاصة ولا يخضع للمقاييس الخُلُقية، ولا سياسة قائمة بذاتها لها قوانينها الذاتية ولا تخضع للمقاييس الخُلُقية، ولا أي نشاط على الإطلاق مما يقوم وحده بقوانين ذاتية منفصلة عن القاعدة الأخلاقية، لا يوجد هذا إلا في الجاهلية، أما في الإسلام فلا شيء على الإطلاق من نشاط الإنسان يخرج – أو يمكن أن يخرج – عن القاعدة الأخلاقية.

والمفهوم الخلقي في الإسلام لا يضيق حتى ينحصر في عمل من أعمال الإنسان دون عمل، ولكنه يشمل نشاط الإنسان كله، فالسياسة لها أخلاقها ومنبثقة من قاعدة أخلاقية، والاقتصاد له أخلاقياته ومنبثق من القاعدة الأخلاقية العامة للإسلام، والنشاط الجنسي، والنشاط الفني والنشاط الفكري والنشاط العلمي، لا شيء على الإطلاق مما يبذله الإنسان في الأرض من نشاط يمكن أن تكون له قوانين قائمة بذاتها كما تقول الشيوعية أو يقول العالم الغربي، وهما هنا يتفقان في الأصل، لأن المسيحية لم تدخل أبداً، إنما تنقلت من جاهلية إلى جاهلية، من الجاهلية اليونانية إلى الجاهلية الرومانية إلى

الجاهلية المسيحية المزيفة إلى بدايات الجاهلية الحديثة إلى القرن العشرين، فهي تنتقل دائماً من جاهلية إلى جاهلية. في جاهليتها الوسطى قام ميكيافيلي يقول: السياسة لا علاقة لها بالأخلاق، إنما لها أحوالها الخاصة، ولا تخضع ولا ينبغي أن تخضع للمقاييس الخلقية! وجاءت الثورة الصناعية القائمة على ربا اليهود فقالوا: الاقتصاد ليس له علاقة بالأخلاق، ولا ينبغي له أن يخضع للأخلاق، إنما له قوانينه الحتمية الذاتية! ثم ظلوا هكذا يحطمون جزءاً من الحياة البشرية وراء جزء، يلقونه في الهواء أو في الهُوّة ويقولون هذا ليس له علاقة بالأخلاق، حتى جاءوا أخيراً يقولون أعجب قول يستطيع الإنسان أن يتصوره: إن العلاقات الجنسية لا علاقة لها بالأخلاق !!! إنما هي مسألة بيولوجية بحتة، ذكرٍ وأنثى يلتقيان فما دخل العلاقات الأخلاقية بالعلاقات الجنسية؟! ما دام هناك منحدر فلابد أن يصل الناس إلى قاع المنحدر، ولقد كانت أوروبا وهي تعيش في جاهليتها تسير على منحدر أدّى بها في النهاية إلى هذه الأقوال الفاحشة: إن العلاقات الجنسية ليس لها علاقة بالأخلاق لأنها مسألة بيولوجية!

في الإِسلام لا شيء يَخرج عن قاعدة الأخلاق، الإِسلام يقول إن هناك سياسة تَسوس أمور الناس، هذه السياسة تقوم على الحق والعدل، وهي مقاييس أخلاقية في الوقت التي هي مقاييس عقيدية أيضاً؛ لأن السياسة جزء من العقيدة مبنية على الأصل العقيدي الذي يشمل كل النشاط البشري، ومصطبغة بالصبغة الأخلاقية، فالسياسة لها أخلاقياتها التي نأخذ منها نموذجاً هنا – نموذجاً من أوائل التاريخ – لأنه هناك في أوائل التاريخ الإِسلامي كان النموذج المتكامل الذي تمثل فيه الإِسلام كاملاً، والذي نبغي اليوم أن نعود إليه مرة أخرى.

أمثلة إسلامية :

١- حين قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: اسمعوا وأطيعوا، تصدّى له سلْمان الفارسي يقول: لا سَمْعَ لك علينا اليوم ولا طاعة ... حتى تُبينَّ لنا هذا البُرد الذي ائتزرتَ به من أين لك هو؟

هذا هو المقياس الخُلقي للسياسة، هو تعامل سياسي بين الحاكم والمحكوم قائم على القاعدة العقيدية، ومُتَّسِمٌ بالسِّمَة الأخلاقية. وحين لم يغضب عمر لهذه القَوْلة واستجاب وقال: لم... وحين أَفْهَمَهُ سلمان أنه يتساءل عن البُرْد، فرد عمر، قال: يا عبد الله بن عمر - ينادي ابنه عبد الله - ناشدتُك الله، هذا البرد الذي ائتزرتُ به أهو بردك؟ قال: نعم، ثم التفت إلى المسلمين يقول: إن أبي نال برداً واحداً كما نال بقية المسلمين، ولكنه رجل طوال- أى طويل -لا يكفيه برد واحد، فتركتُ له بُرْدي.

هذا هو مقياس أخلاقي في الوقت الذي هو مقياس عقيدي، وفي الوقت الذي هو القاعدة التي تقوم عليها السياسة في الإسلام.

٢- مثال آخر من فجر التاريخ الإسلامي المضيء بكل شفافيته: حين يجيء علي بن أبي طالب فيجد دِرْعَه مسروقاً عند واحد من اليهود، فيقول له: هذه درعي، فيقول: لا ليست درعك. فيقول له: تعالَ إلى القاضي... هذه هي الصورة الإسلامية العقيدية الأخلاقية، يذهب به إلى القاضي ليشكوه، ويقول الدِّرْع دِرْعي ولم أَبِعْ ولم أَهِبْ، فيلتفت القاضي إلى اليهودي، لا يحكم في القضية ابتداء، وهو يعلم صدق عَليٍّ الذي كرّم الله وجهه، لم يسمع عنه كذب قط، ويعلم القاضي علم اليقين أنه صادق في دعواه، فلا يحكم بعلمه، إنما

يقول لليهودي: يا يهودي، ما تقول في قول أمير المؤمنين؟ فيقول قولة ملتوية: الدرع درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب - كلمة كما ترونها على طريقة اليهود في الالتواء والخداع - فيلتفت القاضي إلى أمير المؤمنين ويقول له: يا أمير المؤمنين هل مِنْ بيِّنة؟

هذه قمة الأخلاقيات السياسية الإِسلامية، والقمة الأخرى: يبتسم عَليٌّ، ويقول: صدق شُرَيْحٌ - وهو القاضي - ما لي بيِّنة. فيحكم القاضي - تلك هي القمة الثالثة - فيحكم القاضي بالدرع لليهودي وهو يعلم أنها لعلي أمير المؤمنين، ولكن تنفيذاً للشريعة الربانية: « البينةُ على من ادَّعَى »[1]، وعليٌّ بن أبي طالب مُدَّعٍ، أي هو رافع الدعوى على اليهودي.

البينة على من ادعى، هل لك بيِّنة؟ ما عندي بينة... انتهى الأمر، إذا كنتم تريدون بقية القصة فهي معروفة: ينطلق اليهودي بالدرع بضع خطوات ثم يعود فيقول: أمير المؤمنين يشكوني إلى قاضيه فيقضي عليه! إن هذه لأخلاق أنبياء! أشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقول علي كرم الله وجهه: أما وإذ أسلمت فهي لك[2].

---

(١) **صحيح**. أخرجه البيهقي في سننه (٢٥٢/١٠) بسند صحيح عن ابن عباس مرفوعاً وفيه: « البينة على المدعي واليمين على من أنكر » . وله طرق وشواهد، والحديث في الصحيحين بلفظ: « لو يعطى الناس بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه »، وانظر إرواء الغليل (رقم ٢٦٤١) فثم طرق لهذا الحديث.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه [ترجمة على بن أبى طالب (ج٣/ص ٢٤٤- ٢٤٦/ رقم ١٢٦٢، ١٢٦٣]، وأخرجه وكيع - محمد بن خلف - في أخبار القضاة (٢/ص٢٠٠)، والبيهقي في سننه (١٣٦/١٠)، وغيرهم، وهي قصة مشهورة **لا تثبت من قِبَل أسانيدها**، والله أعلم.

لا انفصام في الإسلام:

هذا نموذج من الأخلاق الأساسية الإسلامية مبنية على قاعدة أخلاقية، لا شيء في الإسلام منفصل عن الأخلاق، هكذا تكون السياسة في الإسلام على قاعدتها العقيدية مبنية على قاعدة أخلاقية هي الصورة التنفيذية لعقيدة الله سبحانه وتعالى. الاقتصاد هكذا، والاجتماع هكذا، وعلاقات الأسرة هكذا، وعلاقة المعلم بتلاميذه والتلميذ بأستاذه هي هكذا، منبثقة من عقيدة، وذات طابع أخلاقي.

لا يوجد في التصور الإسلامي ذلك الانفصام بين النشاط البشري وبين قاعدته الخُلُقية.

لا يكون الإنسان بلا أخلاق، أو لا يكون عمل الإنسان بعيداً عن الميزان الخلقي إلا إذا كان الإنسان ذا طبيعة واحدة، مثل الحيوان أو الـمَلك، الحيوان ذو طبيعة واحدة، مفروض عليه سلوكه، لا اختيار له في السلوك، ومن هنا ليس هناك ميزان خُلُقي للحيوان؛ لأن الميزان الخلقي يستدعي حرية الإنسان في أن يعمل أحد عملين، ومن هنا يصير أحد العملين أخلاقياً والآخر غير أخلاقي، أما إذا كان الطريق واحداً ومفروضاً فهنا لا يوجد ميزان خُلُقي. الحيوان لا يوجد ميزان خلقي لأعماله. والمَلَكُ كذلك لا يوجد ميزان خلقي لأعماله، لأنه لا يملك إلا طريقاً واحداً هو طريق العبادة، روح تعبد الله ولا تمـلـك المعصـية ﴿ لاَ يَعْصُون اللَّهَ مَا أَمَرَهُم وَيَفعَلُونَ مَا يُؤْمَرونَ ﴾ [سورة التحريم: آية ٦] ، هذه طبيعة الـمَلك ومن هنا لا نقـول إن المَلكَ فـاضل، ولا نوازن بين مَلَك ومَلَك على أساس خُلُقي لكنِ الانسان: ﴿ وَنَفسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهـا فُجُورَهَا وَتَقْواهَا *

قَدْ أفلحَ من زكَّاهَا * وقَدْ خـَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [سورة الشمس: الآيات من ٧-١٠] ﴿ وَهَديناهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [سورة البلد: آية ١٠] ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيـلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [سورة الإنسان: آية ٣].

ما دام له طريقان، وما دامت له القدرة على الاختيار بين أحد طريقين: فالحكم الأخلاقي ملازم لأعماله، ولا يمكن أبداً في أية لحظة أن ينفصل العمل الإنساني عن الميزان الخُلقي، إنما تقول ذلك الجاهليات التي تُوَرِّدُ لنا هذه الأيديولوجيات.

التـــــوازن:

وكما وَحَّد الإسلام الروح والجسد والدنيا والآخرة وَوَحَّد كذلك النشاط على قاعدة عقيدية وموازين أخلاقية: فإنه كذلك وازَنَ بين نشاطات الإنسان، نحن تكلمنا عن الشمول - الشمول والتكامل-، الشمول بمعنى أنه يشمل النشاطَ البشري كله، والتكامل بمعنى أن كل جزئية من هذا الموضوع تكمل الأخريات حتى ينتج منها نظام متكامل، وحتى تتكامل صورة الإنسان الكائن البشري.

والسمة الأخرى للمنهج الإسلامي أو التصور الإسلامي هي التوازن. لا يكفي فقط الشمول، فقد يوجد نظام ما نستطيع أن نتصوره - جدلاً - يشمل كل نشاط الإنسان، وهو لم يوجد في غير المنهج الرباني، لكن نستطيع -جدلاً - تصور أن يوجد من صنع الإنسان نظام يشمل كل نشاطات الإنسان، لكن الإسلام وحده هو الذي يوازن بين هذه النشاطات، ليس فقط أنه شامل، وليس فقط أنه متكامل، ولكنه أيضاً متوازن، فيوازن بين المقادير المختلفة التي

يمارس بها الإنسان نشاطاته، فلا يطغى منها جانب على جانب . جانب الجسد لا يطغى على جانب الروح، فليس فقط أنهما عمليتان، إن الإسلام يشمل جانب الجسد إلى جوار جانب الروح، فوق هذا فهو يوازن بينهما، لا العبادة تطغى على سعيه إلى الرزق، ولا السعي إلى الرزق يطغى على التعلم، ولا هذا وذاك يطغيان على واجب عمارة الأرض، ولا هذا وذاك وذلك يطغى على وجوب تسخير الطاقات السماوية والأرضية للإنسان ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وما في الأرض جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [سورة الجاثية: آية ١٣] ولا هؤلاء جميعاً يشغلون عن إقامة شريعة الله في الأرض، ولا كل أولئك يشغلون عن الجهاد في سبيل الله.

هنا توازن مع الشمول، شمول لكل نشاط الإنسان على قاعدة متوازنة لا تجعل الإنسان يميل أو يختل. وقاعدة التوازن يمكن أن تعبر عنها الآية ﴿ وَابْتَغِ فِيما آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [سورة القصص: آية ٧٧] هذا نوع من الموازنة. وكلمة التوازن - أو الموزون - تأتي في القرآن في مواضع عديدة ﴿ وأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيءٍ مَوْزُون ﴾ [سورة الحجر: آية ١٩] والتوازن هو الفطرة التي فطر الله عليها الكون - الكون كله - بما في ذلك الإنسان، والإنسان في جاهليته هو الذي يخل توازن نفسه ثم يعبث في طاقات الكون ويحاول أن يخل توازنه، ولكن الله حافظ الكون، ثم محاسب هذا الكائن البشري على ما يقوم به من اختلال في ذاته، سواء كان فرداً أو جماعة. والمنهج الرباني هو الذي يعيد هذا التوازن إلى الحياة البشرية. هذا كلام نظري ... فلنأخذ أمثلة عليه من واقع الحياة الإسلامية لتتبين هذه المعاني أو هذه الكلمات: الشمول، التكامل، التوازن، كيف طبقت في واقع الحياة، ليتها طبقت مرة.

مثلاً، إن الإسلام لا يعرف ذلك الفصل بين الدين وبين العلم، ولا بين الدين وبين الدولة، ولا بين الدين وبين الحياة، كل هذه الانفصالات أو الانفصامات انفصامات جاهلية، أما دين الله فلا يعرف الفصل بين هذه الأمور. الإسلام لم يفصل أبداً بين الدين والعلم، إنما قامت الحركة العلمية الإسلامية بدافع من العقيدة وفي ظل العقيدة، ومن هنا لم يحدث فيها ذلك الصراع الذي حدث في أوروبا بين الكنيسة وبين العلم؛ الذي أدى هنا في جاهلية القرن العشرين إلى أنهم يستنكفون أن يُذكرَ اسم الله في البحث العلمي، وأظن أني في ندوة أمس – أو أول أمس على ما أذكر– ذكرت مثلاً عن دارون الذي يتعامل مع الخلية الحية في القرن الماضي، الخلية الحية التي تستجيش الوجدان البشري لعظمة الخالق الذي خلق الحياة في الخلية الميتة في الأرض، فيأبى أن يذكر اسم الله استكباراً وعناداً مع الكنيسة، فيقول: « الطبيعة تخلق كل شيء، ولا حد لقدرتها» ثم يعود فينتكس نكسة أخرى ويقول: « الطبيعة تخبط خبط عشواء ».

لم يحدث في الإسلام هذا الفصام في الدين والعلم، لأنه دين الفطرة، لأنه دين التوحيد الذي يوحد كل شيء. لم يحدث في الإسلام ذلك الفصام بين الدين والدولة إلا في هذا القرن، حينما دخل المسلمون في الجاهلية الحديثة، فنحّوْا شريعة الله عن الحكم، وجعلوا الدين ديناً بالمعنى المسيحي، أي علاقة بين العبد وربه، وتركوا واقع الحياة تحكمه المناهج الجاهلية، أما في دين الله فلا فَصْم، ولا يمكن أن تُفْصم الدولة عن الدين. الدولة منبثقة من هذه العقيدة ومن تنظيماتها، فالدين والدولة شيء واحد، والدين والحياة لا ينفصلان.

الواقع أن أوروبا وقعت في هذا الفصام عناداً بين المسيحية وبين اليهودية،

مع أن المفروض أن عيسى عليه السلام كما حدّث القرآن عنـه ﴿ **وَمُصَدِّقًا لما بين يَدَيَّ مِن التَّوراة ولأُحِلَّ لكُم بَعْضَ الَّذي حُرِّمَ عَليكُم** ﴾ [سورة آل عمران: آية ٥٠] أي معدّلاً لبعض أحكام التوراة، فالقاعدة إذاً كانت التوراة مع التعديلات التي جاء بها عيسي. فلما وقع الفصام والعناد بين اليهود وبين المسيحيين لم يأخذ المسيحيون التوراة كنظام حياة، واستبدلوا بها القانون الروماني، فظلت العقيدة علاقة بين العبد والرب، وظل القانون الروماني وورثوه من بعد يحكمون الحياة والواقع، فانفصل الدين عن الحياة.

في الإسلام لا يوجد هذا الفصل بين الدين وبين الحياة، فإنما نزل الدين لينظم الحياة، ليقوم الناس بالقسط، فكيف ينفصـل الدين عن الحياة؟!

كـذلك نموذج من نماذج التـوازن في الإسـلام: التـوازن في السلطة السياسية:

مثلاً في السلطة السياسية هناك توازن بين سلطة ولي الأمر وسلطة الأمة، ولي الأمـر له سلطة ولكنهـا كـمـا حـدثكم بالأمس صـديقي الشيخ « منّاع » ليست سلطة قائمة بذاتها ﴿ **أطيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأمْرِ مِنكُم** ﴾ [سورة النسـاء: آية ٥٩] لفت نظركم بالأمس إلى أن الفـعل بالطاعـة أو الأمـر بالطاعة جاء مع الله سبحانه وتعالى، أي أن له طاعتين، مطلقة ومع الرسول عليه الصلاة والسلام، بمعنى أن له طاعة مطلقة. ولم يقل وأطيعوا أولى الأمر منكم وإلا لوجبت طاعتهم مطلقاً، إنما قال: ﴿ **أَطيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولي الأمْرِ مِنكُم** ﴾ فصارت طاعة ولى الأمر مترتبة على طاعته هو الله ورسوله، ولى الأمـر له سلطة السـمع والطاعـة ومن جـانب آخـر الأُمـة لهـا سلطة الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتتوازن السلطتان.

التكَافُل الاجْتِمَاعِـــيّ

التكافل الاجتماعي أو العدل الاجتماعي في الإسلام يتسم بذات السمات التي يتسم بها المنهج الرباني، الشمول ... التكامل ... التوازن، فلا يأخذ الصور المنحرفة التي عرضتها علينا الجاهليات المختلفة. فأولاً الشعور بمسؤولية الدولة عن كل فرد من أفرادها هذا معنى لم تعرفه البشرية إلا في القرن التاسع عشر والعشرين نتيجة احتكاكات مصالح البشر وثورات المظلومين، ولكن الإسلام فرض على ولى الأمر أن يكون مسؤولاً عن كل فرد في الدولة، حتى ليقول عمر رضي الله عنه: « لَوْ عَثَرتْ بغلَةٌ في صَنعاءَ لكُنتُ مَسْؤولاً عنها لِمَ لم أُسوِّ لها الطريق ».

فيبلغ إحساسه بمسؤوليته إلى حد يتجاوز البشر إلى الدواب والبهائم. مسؤولية الدولة مبدأ قديم جداً قِدَمَ هذا الدين، أربعة عشر قرناً، ومن بين مسؤوليات الدولة إيجاد التكافل الاجتماعي في المجتمع، مسؤولية مشتركة بين الدولة والأفراد، الدولة تأخذ الزكاة، تفرضها فرضاً وتقاتل عليها، وتنفقها على المحتاجين، وهناك أمر آخر بالإنفاق في سبيل الله، فيحدث التكافل الاجتماعي، أما التكافل الاجتماعي الذي عرفته أوروبا في القرن التاسع عشر والعشرين فلم يأت طواعية، وإنما جاء خوفاً من ثورات العمال، ثم لما تحقق في الشيوعية... كيف تحقق في الدولة الشيوعية؟ تزعم بالحق أو بالباطل أنها تكفل احتياجات الإنسان (Necessities) أي المطالب الأساسية الثلاثة للإنسان: المطعم والمشرب حاجة، والملبس والمسكن حاجة، ثم الإشباع الجنسي. هذه هي المطالب

الرئيسية للإنسان في تصورهم، أو هي المطالب الرئيسية للحيوان! الحيوان البشري الذي صنعته روسيا. نفرض جدلاً أنها أعطت كل ما يتطلبه جسد هذا الحيوان البشري الذي يربونه هناك، فماذا اقتضوا في مقابل كفالة لقمة العيش؟ لقد اقتضوا كرامة الإنسان، اقتضوا أنهم يستذلونه بلقمة العيش فلا يستطيع أن يفتح فمه بكلمة نقد واحدة للحكومة أو للحزب أو للزعيم المقدس، لأنه عندئذ يتعرض لأن يموت جوعاً، أفهذه هي الكرامة الإنسانية؟

الإسلام يعطي التكافل الاجتماعي ويقيم مجتمعه على التكافل مع المحافظة الكاملة على إنسانية الإنسان وكرامته وعرضه.

تلك الشيوعية مرة أخرى: ماذا اقتضت من هذا الحيوان البشري الذي حوّلته إلى حيوان ؟

اقتضت أمنه وطمأنينته! فالجاسوسية تفرّق بين الزوج وزوجه، وبين الأخ وأخيه، لا يأمن واحد أن يكلم الثاني كلمة، في مقابل ماذا؟ في مقابل لقمة العيش الحقيرة التي توفرها الدولة.

الإسلام وفّر لقمة العيش الكريمة دون أن يلجأ إلى الحديد والنار لأنه دين الله المنزّل، فوحّد الأمة - الأمة الإسلامية - وحدة متكاملة، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٠] المسلمون فقط في التاريخ هم الذين حققوا معنى الأمة فضلا عن أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس.

مَعْنَى الأُمـة:

الأمة في نظر علم الاجتماع الجاهلي - علم الاجتماع الغربي - مجموعة من البشر تجمعها لغة مشتركة وجنس مشترك ومصالح مشتركة و أرض

مشتركة وتاريخ وثقافة مشتركة! - بدل وعقيدة؛ آخر شيء يفكرون فيه! -.

الأمة في نظر الإسلام مجموعة من البشر تربط بينها عقيدة، ثم تأتي بعد ذلك اللغة المشتركة أو لا تأتي، الأرض المشتركة تأتي أو لا تأتي، الجنس المشترك لم يدخل أبداً في حساب الإسلام، وإنما جمعت هذه الأمة لأول مرة في التاريخ وللمرة الوحيدة في التاريخ، وأمكن أن تُصْهَر هذه الأجناس البشرية في بوتقة واحدة، لماذا؟

لأنها تقوم على عقيدة، تُعبِّدُ الناسَ كلهم لإله واحد فيكونون إذاً - على الحقيقة لا على المجاز ولا على الكذب - متساوين جميعاً وأحراراً جميعاً وكرماء جميعاً، هذا لم يحدث أبداً لأي تجمع في التاريخ، لا التجمع الروماني ولا التجمع البريطاني - « الكومنولث » - ولا التجمع الأمريكي - (United States اليونايتد ستيتس)- ولا التجمع الروسي الخاص باتحاد جمهوريات السوفيات الروسية، إنما تَحَقَّقَ فقط في الإسلام لأنه يقوم على عقيدة. ثم لم يقم في داخل هذه الأمة الواحدة تلك الصراعات المفتعلة التى يحدثنا عنها التفسير المادي للتاريخ- أقصد التفسير الجاهلي للتاريخ- يزعم التفسير الجاهلي للتاريخ زَعْمَين كبيرين:

الأول أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام.

والثاني أنه في خلال البحث عن الطعام وقعت التناقضات والصراعات الطبقية بين البشر.

وحدة البشـــر:

والإسلام في تصوره الرباني الصافي الرائق الجميل الشفاف لا يقيم العلاقة بين البشر على أساس البحث عن الطعام، ولا على أساس الصراع الطبقي، إنما يقيمه على أساس وحدة البشر في عبادتهم لربهم. هناك صراع، نعم، في الإسلام صراع، لكنه ليس صراعاً بين الطبقات كما يزعم التفسير الجاهلي للتاريخ، إنما هو صراع بين الحق والباطل، صراع بين الخير والشر، وذلك الذي يقول فيه القرآن: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٥١] لا صراع طبقيّ وإنما صراع بين الخير والشر.

ولم يقبل الإسلام من الناس أن يصيحوا تلك الصيحات الجاهلية التي تُسَمَّى قوميات.

فموقف الإسلام في هذا الأمر واضح جداً: أنه لا يمنع التجمعات البشرية المتجانسة أن تحس بتجانسها، لم يطلب من المصريين مثلاً أن يكفوا عن كونهم مصريين، أو لم يطلب من العرب التخلي عن عروبتهم، ولم يطلب من الهنود ألا يكونوا هنوداً، بل قال: ﴿ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [سورة الأنفال: آية ٧٥] فأقرّ رابطة الدم، ولكن كيف وأين ومتى؟ تحت راية الإسلام.

حين تكون صيحات جاهلية تقيم النزاعات والصراعات وتقيم الحواجز بين جزء من جسم الأمة وجزء آخر فتلك هي العصبية المنتنة التي قال فيها رسول الله ﷺ: « دَعُوهَا فَإِنَّها مُنتِنَة » [1] والتي قال فيها: « لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (رقم ٤٩٠٥) كتاب التفسير، باب قوله «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم .. »، ومسلم (رقم ٦٣/٢٥٨٤، ٦٤) =

إِلى عَصَبِيَّةٍ؛ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ؛ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ »[1].

لو مضينا نتحدث عن سمات هذا التصور أو هذا المنهج الرباني لا يكفينا القول، وأنا أشفق عليكم وعلى وقتكم وأقول نقف هنا. هذا القدر يكفينا في أخذ صورة عامة عن التصور الإِسلامي، ولكني أختم بما بدأت به:

إننا لا نتحدث عن الفكر الإِسلامي أو عن التصور الإِسلامي كبديل عن

=كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، وغيرهما، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(١) **ضعيف الإسناد صحيح المعنى**. أخرجه أبو داود في سننه (رقم ٥١٢١) كتاب الأدب، باب في العصبية، وابن عديّ في الكامل (١٠٠٥/٣ - ترجمة روح)، والبغوي في شرح السنة (رقم ٣٥٤٣)، كلهم من طريق محمد بن عبد الرحمن بن لبيبة (أو ابن أبي لبيبة) عن عبد الله بن أبي سليمان عن جبير بن مطعم، به. ومحمد بن عبد الرحمن ضعيف كثير الإرسال، وعبد الله بن أبي سليمان لم يسمع من جبير كما ذكر عن أبي داود.

ومعنى الحديث صحيح، فقد أخرج مسلم في صحيحه (رقم ٥٣/١٨٤٨، ٥٤) كتاب الإمارة، باب (١٣)، من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عُمِّيَّةٍ يغضب لعصبة أو يدعو إلى عَصَبَةٍ أو ينصر عَصَبَةً فقُتل، فَقِتْلَةٌ جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه » وفي رواية: «... ومن قتل تحت راية عمية، يغضب للعصبة، ويقاتل للعصبة، فليس من أمتي.... ».

وأخرج مسلم أيضاً (رقم ٥٧/١٨٥٠) من حديث جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: « من قتل تحت راية عمية يدعو عصبية أو ينصر عصبية فَقِتْلَةٌ جاهلية ».

الأيديولوجية المستوردة، لأن البديل هو الإسلام، ولا نتكلم عن الفكر الإسلامي كفكر قائم بذاته؛ لأن الإسلام لا يعرف الفكر للفكر ولا يعرف فكراً لا يتحول إلى سلوك، إنما نتحدث عن التصور الإسلامي أو الجانب الفكري للإسلام ليعيننا في أن نعود لنتعرف إلى إسلامنا في غربتنا الحالية، فنحاول مرة أخرى أن نطبق هذا الإسلام في واقع الأرض فننتشل أنفسنا نحن مما هي فيه، ثم ننقذ البشرية كلها مما هي فيه، لأنه لا منقذ إلا الإسلام، ولن يعطي الإسلام إلا المسلمون، ولن يستطيع المسلمون أن يعطوا الإسلام البشرية حتى يحققوه أولاً واقعاً في نفوسهم.

اللهم وفق، اللهم آمين

والسلام عليكم ورحمة الله

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

التربية والتعليم فى مفهوم الإسلام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

أيها الإخوة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فقد فَاجأني هذا الحشْدُ، وما كُنتُ متوقعاً أن يكون هذا العدد كُله قادماً للاستماع لي. إنني أحس أمام ربي بالخشية كلما وجدت قوماً من الناس يستمعون إلَيّ أو يقرأون كُتبي أو يظنون بي خيراً، إنني أستغفر الله لي ولهم وأرجو أن أكون عند حُسنِ ظنهم، وأرجو أن يتقبل الله مِنى ومنا جميعاً، وأن يهدينا إلى طريق الصواب.

هذا الدين دين تربية، والكتاب المنزّل من عند الله على رسوله ﷺ هو منهج شامل للتربية، عليه رُبيت الأمة الأولى، الجيل الأول من المسلمين، الذي وصفه خالقه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ **كُنتُم خَيـرَ أمـةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ تأمُرونَ بالمعرُوفِ وتَنهَونَ عَنِ المنكَرِ وتُؤْمِنُونَ باللهِ** ﴾ [سورة آل عمران آية:١١٠].

المنهج الذي ربى هذه الأمة فكون منها خير أمة أخرجت للناس هو فى هذا الكتاب، ومن سنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

فلنبحث إذاً عن المنهج في هذا المصدر، فالجيل الأول الذي مثّل الإسلام خير تمثيل، وأعطى البشرية نموذجاً رائعاً للسلوك الإنساني على ظهر الأرض،

حين يكون مهتدياً، وحين يكون مستقيماً، وحين يكون متلقياً من عند الله، هذا الجيل لم يكن له مصدر للتربية وللتكوين إلا كتاب الله وسنة رسوله.

وإذا فهمنا المنهج في الكتاب والسنة المنهج الكامل، هذا أمر ينبغي أن نكون على يقين منه. إن منهج التربية الإسلامية موجود بكامله في كتاب الله وسنة رسوله.

ومن جانب آخر علينا أن نعلم علم يقين أيضاً أن كل ما ورد في الكتاب والسنة - كل الموضوعات التى جاءت فى الكتاب والسنة - هي أجزاء من هذا المنهج، سواء كانت توجيهاً خلقياً، أو توجيهاً سياسياً، أو اجتماعياً، أو اقتصادياً، أو قصة من قصص الأنبياء، أو توجيهات للإيمان، فهي جزء من منهج التربية الإسلامية، وإن بدا لأول وهلة أنه ليس له صلة مباشرة بالتربية، كلا ... كل حرف في هذا الكتاب وكل كلمة جاءت في أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام هي جزء من منهج التربية الإسلامية.

وإذاً فعلينا أن نجمع منهج التربية الإسلامية من الكتاب ومن السنة كلها، لا نترك منها كلمة، ولا نترك منها موضوعاً، وإن بدا لنا لأول وهلة أنه بعيد عن التربية، ذلك أن التربية الإسلامية منهج شامل، وهو أشمل منهج عرفته البشرية أو يمكن أن تعرفه في وقت من الأوقات. إنه لا يأخذ جانباً من الإنسان دون جانب، إنه يأخذ الإنسان كله، كل جوانبه، وكل ألوان نشاطه: جسمه وروحه وعقله، نشاطه السياسى، والاقتصادي، والاجتماعي، والفكري، والروحي، والفني، والخلقي، الفردي والجماعي، كل ما يصدر عن الإنسان من أعمال، **كل ما يخطر في باله من أفكار هو تحت المظلة الإسلامية**، ينبغي أن يستظل بها، وينبغي أن يهتدي بنهج الله.

إذاً فمنهج التربية الإسلامية شامل لكل ذلك.

ومن هنا نقول: إن كل كلمة في كتاب الله أو في سنة رسوله عليه الصلاة والسلام هي جزء من منهج التربية الإسلامية، ولو كانت توجيهاً سياسياً أو اقتصادياً أو قصة من قصص الأقدمين أو وصفاً لمشهد من مشاهد القيامة، كله داخل في منهج التربية الإسلامية.

إن هذا المنهج - كما قلت - يأخذ الإنسان كله: جسمه وروحه وعقله، ويأخذ ألوان نشاطه كلها، ويأخذ دنياه وآخرته، يأخذ عمله الظاهر وخواطره التي يكنها في نفسه، **بل يدخل في النية بها ولو لم يفعل، ومن هنا فهو أشمل منهج عرفته البشرية أو يمكن أن تعرفه في يوم من الأيام !**

* * *

والآن فلننظر نظرة سريعة في الفرق بين هذا المنهج الرباني الواسع وبين أي منهج تربوي عرفته البشرية.

لماذا نفضل المنهج الرباني؟

نفضله طبعاً لأنه عبادة لله.

ونفضله كذلك على وعي وبصيرة :

﴿ **قُلْ هَذه سَبِيلي أدعُو إلى اللهِ عَلى بصِيرةٍ أنا وَمَن اتَّبعني** ﴾ [سورة يوسف آية:١٠٨].

البصيرة مطلوبة في هذه الدعوة .

نعم نتعبد لله كما أمرنا، ولكن في ذات الوقت نكون على بصيرة من هذه العبادة، نكون على بينة من حكمة كل شيء فيها. ما ذكر منها فالحكمة فيه ظاهرة. وما لم يُذكر فإننا نجتهد حتى نعلم حكمته.

كل مناهج البشرية - باعتراف أصحابها - تسعى إلى تكوين المواطن الصالح. وكل منهج من مناهج التربية البشرية الأرضية يكتب في ديباجته أنه يسعى إلى تكوين المواطن الصالح، أما الإسلام فانه بادئ ذي بدء يسعى إلى تكوين الإنسان الصالح.

وهذا فارق مبدأي، وفارق رئيسي، وفارق واسع جدًا، بين مناهج التربية الأرضية، ومنهج التربية الرباني. قد يبدو لنا لأول وهلة أنه لا يوجد فارق حقيقي. فالمواطن الصالح لابد أن يكون إنسانًا صالحًا! إذاً فما الفرق وما الميزة؟ ولكن هذا الذي يبدو لنا لأول وهلة غير صحيح؛ فهناك فارق كبير جداً بين المواطن الصالح وبين الإنسان الصالح، الإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث هو مواطن في هذا البلد أو ذاك، ولنضرب الأمثلة لأن الأمثلة أكثر توضيحاً من الكلام المعمم.

لنأخذ نموذجاً من أروع نماذج التربية في الأرض غير التربية الإسلامية:

التربية الإنكليزية كانت - وأقول كانت - لأن الجيل الجديد في إنكلترا بعد الحرب العالمية الثانية قد بدأ ينحل، وبدأ يُصيبه ما أصاب بقية العالم الغربي من تحلل وفساد وعدم انضباط، لكن كانت التربية الإنكليزية حتى الحرب الكبرى الثانية نموذجاً عالياً جداً من نماذج التربية الأرضية. كانت في كثير من تفاصيلها وكلياتها قريبة الشبه بالتربية الإسلامية، ولكننا سنرى - بضرب الأمثلة - الفرق بين الاثنين .

التربية الإنكليزية - حين كانت في أوجها وروعتها - كانت تخرج إنساناً متوازناً منضبط السلوك، إنساناً له ضمير، له وازع داخلي يدفعه إلى العمل، إنساناً مهذباً مؤدباً لطيف المعاملة، إنساناً صادقاً أميناً، لا يغش، ولا يخدع،

ولا يلف، ولا يدور، ولا يتدخل في شأن غيره، ولا يغتاب أحداً، ولا يسعى في النميمة بين أحد وأحد. هذه الصورة - لأول وهلة - تبدو صورة جميلة براقة، وأن فيها كثيراً جداً مما تسعى إليه التربية الإسلامية.

ولكن عند إمعان النظر، عند الدراسة الحقيقية لهذا النموذج التربوي - وهو أعلى منهج تربوي في نظر كثير من الناس - سنرى أن هذه الأخلاقيات العالية هى أخلاقيات محلية، بمعنى أن الإنكليز يمارسونها داخل الجزر البريطانية. يكون الواحد منهم مهذباً لطيفاً ملتزماً بالقانون، له وازع داخلي يدفعه إلى عمل الخير، لا يسعى إلى الضرر، متقناً لعمله.. إلخ.

كل هذه الصفات جميلة وخلال حميدة، ولكن كما قلت: تمارس في داخل الجزر البريطانية. فإذا خرج هذا الإنكليزي ذاته من الجزر البريطانية وساح في الارض فلا شيء يمنعه على الإطلاق من أن يتحول وحشاً كاسراً، يسفك الدماء، ويمتص الأموال، يمتص خيرات الناس، ويحرمهم منها. هل تغير؟ قد يبدو لأول وهلة أنه تغير، وأنه فقد انضباطه لأنه خرج من الجزر البريطانية، ولا رقابة عليه. كلا إنه لم يتغير ..

إنه مازال كما هو ملتزماً بالتربية التى ربى عليها ...

كيف كان ذلك؟

فلنعد إلى هذه التربية التى تبدو ولأول وهلة جميلة براقة مثالية، وكأنها هي التطبيق العملي لما نقوله نحن عن منهج التربية الإسلامية.

فلننظر: ما هي القاعدة التي قام عليها المنهج التربوي؟ لقد قام على قاعدة وطنية - أو فى الكثير قومية - بمعنى أن الإنكليزي يربى على عبادة وثن اسمه الجزر البريطانية - كان اسمه فيما مضى الإمبراطورية البريطانية - هذا

وثن معبود يتوجه إليه بالعبادة، ومن أجل هذا الوثن المعبود يَرتدي هذا الزى الأخلاقى فى داخل الجزر البريطانية: لا يكذب، لا يخدع، أمين، صادق، مؤدب مهذب، حريص على التزام القانون .

كل هذا يصنعه إرضاء لهذا الوثن الذي يعبده. حتى إذا خرج فهو مازال يتعبد ذات الوثن. إنه يسفك الدماء، ويمتص الدماء، ويمتص الأموال لصالح الإمبراطورية البريطانية، لصالح الوثن المعبود.

إذاً فهو ما زال على منهج التربية الإنكليزية، لم يتغير، هو هو الذى كان مهذباً ولطيفاً ورقيقاً داخل الجزر البريطانية، إنه هو الذي يسفك الدماء، هو الذى يمتص خيرات الناس، هو الذي يصلف عليهم، ويحتقرهم، ويستذلهم، هنا يعمل لصالح الإمبراطورية، وهناك يعمل لصالح الإمبراطورية، لم يتغير منه شيء .

هذا هو المنهج الإنكليزي في التربية على كل جماله ... على روعته... على كل بهائه... على البريق الخاطف الذي يخطف به الأبصار. إنه قائم على هذه القاعدة الضيقة – قاعدة الوطنية – أو فى الكثير: قاعدة القومية.

لا يحترم الإنسان من أجل أنه إنسان. لا يحترم الحق من أجل أنه حق بصرف النظر عن ضعف صاحبه أو قوته.

لم يُربَّ على ذلك.

لم يرب على المعاني الإنسانية، لم يربَّ على احترام الإنسان لأنه إنسان.

إنه يحترم الإنكليزي لأنه إنكليزي . فإذا خرج من الجزر البريطانية فإنه لا يحترم الآخرين، لأن هذا المنهج التربوي الذي ربي عليه لم يُعلمه أن الإنسان كريم، من حيث هو إنسان، لا من حيث هو إنكليزي أو ساكن فى الجزر

البريطانية، فحين يسفك الدماء، ويمتص الخيرات، ويسلبها لنفسه - أى يسلبها لصالح الإمبراطورية البريطانية - فهو يتعبد ذات الوثن الذى رُبِّى على عبادته، لأنه لم يُرب على احترام الإنسان من حيث هو إنسان، لم يربَّ على احترام الحق من حيث هو حق، بصرف النظر عن ضعف صاحب الحق أو قوته.

أضرب مثالين اثنين يكفيان في الدلالة، وقد هزني في الواقع هذان المثالان هزاً عنيفاً منذ عرفتُهما، وما زال كل مثال منهما يهزني إلى هذه اللحظة رغم أنه أصبح تاريخاً! ولكن التاريخ لا يُمحى .

* * *

المثال الأول :

صورة رأيتها، هي وثيقة... صورة في كتاب - والصورة لا تكذب - صورة لفارس بريطانى، أيام الاحتلال البريطاني في الهند - (فارس) أى راكب حصان - يستبيح لنفسه أن يطأ فوق ظهر الهندي الراكع أمامه ليعلو حصانه! يعني بدلاً من أن يستعمل الرِّكَابَ في الوثوب إلى حصَانه يستعمل ظهر الهندي! ويستبيح لنفسه ذلك ببساطة، ولا يرى فى ذلك جُرمـاً، وإنما بكل صلف وكبرياء، وبكل إذلال لآدمية هذا الآدمى يعلو ظهره ليركب حصانه، ويرى فى ذلك خدمة للإمبراطورية!

* * *

المثال الثانى:

وقد هزني أكثر من الأول، في أثناء الحرب العالمية الثانية كانت هناك معارك كَرّ و فَرّ في الصحراء الكبرى بين الجيش الألماني وجيوش الحلفاء، فقد ظلت تكر و تفر مدى سنوات طويلة، حتى المعركة الحاسمة في العلمين.

وفى مرة من المرات - لعلها في سنة ١٩٤٣م - أخلى الألمان طبرق وهم منسحبون، وكانوا يعلمون طبعاً أن الحلفاء سيحتلون طبرق، فلغموا الأرض، وهذه بديهة من بديهيات الحرب أن كل جيش مُنسحب يلغم الأرض لكي يحدث أكبر قدر من الخسائر في الجيش الذى يتبعه ويستولى على الأرض بعده ...

وكانت العادة أن تستخدم الحمير والجمال لتفجير الألغام: يثيرونها ويطلقونها في الأرض، فتفجر الألغام وتموت، وليس في ذلك شيء.أما في تلك المعركة - **ولأمر لا أعلمه حتى اللحظة ! - فقد شاء الإنكليز أن يفجروا الألغام بواسطة الهنود، فأطلقوا الفيلق الهندى، ووراءه المدافع الرشاشة ليفجر الألغام!** وتفجرت الألغام بالفعل في أجسام هؤلاء الهنود! وهم بشر مثلهم، وأعضاء مثلهم فى الكومنولث البريطانى. وصدرت النشرة الحربية وبنفس البساطة التي كان الفارس الإنكليزى يعتلي بها ظهر الهندي ليركب حصانه - بنفس البساطة - صدرت النشرة: «استولينا على طبرق... خسرنا بعض الخسائر ... فَني الفيلق الهندي عن آخره» .

هذا لون من ألوان التربية .

انظروا إلى مثاليته داخل الجزر البريطانية حتى ليظن الرائى لأول وهلة أن هذا هو التطبيق العملي للإسلام. مثالي في الانضباط، فى الدقة، في الأمانة، في الصدق، فى كل شيء، فإذا خرج من الجزر البريطانية صار هكذا.

وكما قلت لكم: إنه لم يتغير.

لا تظنوا أنه يسلك هذا السلوك لأنه تغير من الداخل بسبب أنه لا رقابة عليه، كلا...

لقد تعود الإنكليزى أن يعمل بغير رقابة .

تعود أن يكون رقيبه ضميره .

ولكن ضميره هذا يعبد الوثن الذي يسمى بريطانيا العظمى، ولذلك لا يرى حرجاً فى أن يفعل ما فعل.

فإذا كان هذا هو أعلى النماذج البشرية فلا نحتاج إلى الحديث عن النماذج الأخرى لأن المنهج الإنكليزي في نظر كثير من الناس كان أعلى مناهج التربية البشرية. وأقول: كان، لأن الشباب تحلل بعد الحرب الكبرى، فصارِ منهج الخنافس والهيبز، وصاروا لا ينضبطون في سلوكهم. فما كنت تسمع في لندن عن شاب يركب الترام خِلسة ولا يدفع ثمن التذكرة، هذا فساد جديد جدّ في إنكلترا بعد الحرب.

ولكن في قمة التربية البريطانية وفي مثاليتها كان يحدث منها هذا، رأيناه في المثالين السابقين.

لأن هذه التربية لم تُربهم على قاعدة ربانية.

لا يصدرون في أعمالهم عن عبادة الله، إنما عن عبادة ذلك الوثن الذي اسمه بريطانيا العظمى .

* * *

المنهج الإسلامى :

ويسعى ابتداء إلى تكوين الإنسان الصالح، ولعله بدأ يتضح لنا الفرق بين المواطن الصالح والإنسان الصالح.

إن الإنسان الصالح حتماً مواطن صالح، لأن الذي يستطيع الأكثر يستطيع الأقل .

فما دام قد صار إنساناً صالحاً على دائرة واسعة شاملة؛ فهذه الدائرة الضيقة التي اسمها المواطن الصالح داخلة في عموم الإنسان الصالح. ومن ثم فالمسلم بداهة مواطن صالح ... أقصد المسلم الذي تربى تربية حقيقية على منهج الإسلام .

هو مواطن صالح ولكن على نموذج خاص، يختلف عن النموذج البريطاني أو غيره من النماذج .

مواطن صالح لا على الطريقة الأمريكية مثلاً التى تبيح للبيض أن يقتلوا الزنوج في الشارع ورجل الشرطة الأبيض واقف يتفرج حتى ينتهى الأمر ولا يستمع لاستغاثة المستغيث، حتى إذا تم قتله جاء ليسجل الحادث ويسجله ضد مجهول.

والذى يبيح لناس من البشر أن يكتبوا على محلاتهم: ممنوع دخول السود والكلاب.

إن منهجهم التربوي يبيح لهم هذا، والذى يصنع هذا مواطن صالح في نظر المنهج الأمريكى.

وليس كذلك على النموذج الروسي الذى يبيح للإنسان أن يتجسس على أبيه، وأمه، وأخيه، وأخته، وابنته، وابنه، وزوجته، وكل من يحيط به، لصالح الوطن الأعلى فى زعمهم.. المسلم مواطن صالح لكن ليس على هذه الطرق المنحرفة التى رأينا نماذج منها في واقع الأرض .

المسلم المواطن الصالح هو ذاته الإنسان الصالح، الذي رُبِّى على احترام الإنسان، من حيث هو إنسان، واحترام الحق من حيث هو حق، بصرف النظر عن كون صاحبه ضعيفاً، أو قوياً، و(ليس) الالتزام بالأخلاق لأنها تجلب

مصلحة في الأرض؛ ولكنه التزام رباني، لأنه ميثاق بين الإنسان وبين الله: ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ [سورة المائدة الآية:٧] .

هذا هو الميثاق الأخلاقى الإسلامى، ميثاق بين الإنسان وربه، لا يعتمد على المصلحة، فإذا كانت هناك مصلحة طبق، وإذا لم (تكن) هناك مصلحة لم يطبق، كلا إنه يطبق في جميع الأحوال.

هذا هو المنهج الرباني، وهذا هو المسلم المواطن الصالح، لأنه إنسان صالح.

وكما وضحت لنا الأمثلة العملية عيوب المناهج البشرية، كذلك نضرب أمثلة عملية، لتبرز مزايا هذا النظام الربانى :

* **أبو عبيدة في حرب الشام**: كان قد فتح شمال الشام، وأخذ الجزية من أهلها، ثم سمع أن هرقل يجهز له جيشاً عظيماً، فرد الجزية إلى أهلها وقال لهم: أخذنا منكم الجزية بشرط أن نحميكم، وقد سمعتم ما يجهز لنا، وإنا لا نقدر على ذلك - أى لا نقدر على حمايتكم - ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم .

فبعد أن دخل المال حوزة أبى عبيدة يرده على أصحابه، لأنه لم يستطع أن يوفي بالشرط الذى اشترط على نفسه.

فلما انتصر عاد فأخذ الجزية، أعطاها له الناس متطوعين، وقالوا له وللمسلمين : إنكم - ولستم على ديننا - أحنّ علينا وأرأف بنا من قومنا ، وكان من نتيجة ذلك أن حصون الشام الباقية كلها سلمت للمسلمين، لأنهم رأوا النموذج الإسلامى .

* **وعمر رضى الله عنه، يقول لقائده في حرب الفرس**: إذا لاعب أحدكم

- بمعنى لاغى - أحد الفرس فظن أنه يعطيه عهد أمان فأنفذه.

معنى هذا حين نُفصِّله: جندى مسلم يتكلم فيظن أحد الفرس وهو لا يعرف العربية أن الجندى المسلم يعطيه عهد أمان.

وعمر يأمر القائد أن ينفذ هذا العهد.

هذا العهد الذي لم يعطَ في الحقيقة! فالجندي المسلم لم يعطِ عهداً، ومع ذلك فلأن الجندي الفارسي ظن أنه يعطيه عهد أمان فعلى القائد المسلم أن ينفذ هذا العهد! نموذج لم يوجد ولا يمكن أن يوجد في غير الإسلام .

* وعلي كرم الله وجهه، تضيع منه دِرْعه، فيفتقدها، فيجدها عند يهودي، فيقول له: هذه درعي، فينفي اليهودي أنها درع عليٍّ كرم الله وجهه، فيأخذه إلى قاضيه (شُرَيح) ويعرض عليه القضية، حتى إذا وقف الخصمان بين يدى القاضى شريح يقول عليٌّ كرم الله وجهه: الدِّرع درعى ولم أبع ولم أهب - يعنى لا أنا بعتها ولا أنا وهبتها! - فيلتفت القاضى إلى اليهودى، يقول: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟

فيقول اليهودي: الدِّرع درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب.

قولة ملتوية كما ترون.

فيلتفت إلى أمير المؤمنين، يقول: يا أمير المؤمنين هل من بيِّنة.. هل لك بينة على أن هذه درعك؟

فيقول عليّ أمير المؤمنين: صدقَ شريح! مالي بيِّنة.

فيقضى القاضى بالدرع لليهودي وهو يعلم في دخيلة نفسه أن أمير المؤمنين لا يمكن أن يكذب، ويعلم يقيناً أن الدرع درع أمير المؤمنين. لكن القاضى لا يحكم بعلمه، لابد من بيِّنة. فهو يطبق الشريعة بحذافيرها، فيسأل أمير المومنين:

هل لك من بينة؟ فلما وجد أنه ليس عنده بينة قضى بالدرع لليهودى.

فمشى اليهودى خطوات ثم يعود فيقول: أمير المؤمنين يقاضيني إلى قاضيه فيقضي عليه؟! إن هذه أخلاق أنبياء، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقول عليٌ كرم الله وجهه: أما إذ أسلمت فهي لك[1]...

* * *

هذه النماذج قد اخترتها بالذات لمعنى معين: ففي الحالات الثلاث هناك تعامل بين مسلمين وغير مسلمين .

* **في الأولى** : أبو عبيدة مع مسيحيِّ أهلِ الشام.
* **في الثانية** : عمر يتعامل مع المجوس (الفرس) .
* **فى الثالثة** : علي رضى الله عنه وكرم الله وجهه يتعامل مع اليهودي.

هذه النماذج هي حصيلة التربية الإسلامية: احترام الإنسان من حيث هو إنسان، احترام الحق من حيث هو حق، الالتزام بالأخلاق لا لأنها تحقق مصلحة ولكن لأنها التزام بين العبد والرب، ميثاق بين الإنسان وبين الله.

هذا هو الفارق بين المنهج الرباني وبين التربية البشرية، بل هذا هو الفرق بين المنهج الرباني وبين منهج عرفته البشرية، وهو المنهج الإنكليزي .

فارق واضح. وأظن أنه قد اتضح لنا الآن الفرق بين تكوين المواطن الصالح وتكوين الإنسان الصالح.

وإذا كان هذا تعامل المسلمين مع غير المسلمين فمن باب أولى أن يكون

---

(١) تقدم ذكره هنا (ص ٤٧) في مقال الفكر الإسلامي، وشريح القاضي هو ابن الحارث بن قيس الكِنْديّ قاضى الكوفة، قال الذهبى في سير أعلام النبلاء (١٠٠/٤): « يقال: له صحبة، ولم يصح ... وصح أن عمر ولاّه قضاءَ الكوفة » ا هـ.

تعامل المسلمين بين بعضهم وبعض سائراً على ذات الدستور الرباني.

وكذلك كان المسلمون حين كانوا يطبقون منهج التربية الإسلامية.

هذا المنهج الذى يربى الإنسان الصالح، وفي داخله يتكون المواطن الصالح، ولكن على شروط الإسلام. هذا المنهج يحدد خصائص للإنسان الصالح، فهو لا يترك الأمر عائماً بغير تحديد، والإنسان الصالح له مواصفات تجدها في كتاب الله، وسنة الرسول ﷺ :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمِنُونَ * الّذينَ هُم فى صَلاتهم خَاشِعُونَ * والّذينَ هُم عَنِ اللّغْو مُعْرِضُونَ * وَالّذينَ هُم للزّكاةِ فَاعِلُونَ * وَالّذينَ هُم لفُرُوجِهِم حَافِظون * إلا عَلى أَزْواجِهِم أوْ مَا مَلَكتْ أيمانهم فإنّهم غيرُ مَلُومينَ * فَمن ابتغى وَراءَ ذَلِكَ فَأولئكَ هُمُ العَادُون * وَالّذينَ هُم لأَمَانَاتِهم وَعَهدِهِم رَاعُونَ * والّذينَ هُم عَلَى صَلواتِهِم يُحَافِظُون * أولئِكَ هُمُ الوارِثُونَ * الّذينَ يَرِثُونَ الفِردَوسَ هُم فيها خَالدون ﴾ [سورة « المؤمنون » الآيات: ١-١١].

هذا نموذج من المواصفات التي يحددها المنهج الرباني للإنسان الصالح، وهناك مواصفات أخرى مفرقة في الكتاب، في أكثر من سورة:

﴿ الم * ذَلكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فِيه هُدًى لـلمُتقينَ * الّذينَ يؤمِنُونَ بالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاة وَمِمّا رَزَقْناهُم يُنفِقُون * وَ الّذينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أنزلَ إليكَ وَمَا أنزلَ مِن قَبلك وبالآخرةِ هُم يُوقِنُونَ * أولئِكَ عَلَى هُدًى مِن ربهم وَأولئِكَ هُمُ المفلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة آية: ١-٥].

أوصاف كثيرة في الكتاب وفى السنة، تُحدِّد ما هي مُواصفات الإنسان الصالح. نستطيع أن نُلخصها في كلمة، وإن كانت هذه الكلمة تستغرق منا مجلدات كثيرة لكي نشرحها، لكنها مُلخصة في هذا اللفظ:

إن الانسان الصالح عَبْدٌ رباني، أي عبد يعبد الله حق عبادته.

والعبادة طبعاً فى مفهوم الإسلام ليست هى فقط الشعائر التعبدية؛ إنما الشعائر التعبدية جزء من العبادة في الإسلام، لكن حين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلا ليَعبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات آية: ٥٦]. لا يكون القصد من هذه الآية الكريمة شعائر التعبد فقط التي تستغرق دقائق من اليوم كله.

كلا... إنما المقصود بالعبادة معنى شامل متكامل، يشمل كلَّ عمل الإنسان، وكل فكره وكل شعوره، حتى ما يهجس به قلبه داخل في العبادة. بمعنى أنه ينبغي عليه أن يتوجه إلى الله، بكل عمله، وبكل فكره، وبكل شعوره، وأن يتلقى من عند الله، فى كل عمله، وكل فكره، وكل شعوره .

هذا معنى العبادة فى الإسلام.

والعبد الرباني، الذى يعبد الله حق عبادته، يعبده بهذا المعنى، يتوجه إليه بكل عمل، وبكل فكر، وبكل شعور، ويتلقى من عنده - سبحانه - منهج حياته، فيعمل على أساس هذا المنهج، ويحس على أساس هذا المنهج، ويفكر على أساس هذا المنهج، حتى سريرته الداخلية التى لا يعلم عنها أحد شيئاً لابد أن تسير على هدي هذا المنهج الربانى .

هذا هو العبد الربانى :

فالإنسان الصالح هو العبد الرباني. وأول خِصِّيصة بارزة في حياة هذا العبد

الرباني - أو الإنسان الصالح - هي الإيمان بالله .

ولا يمكن بطبيعة الحال أن تستقيم النفس البشرية بغير الإيمان بخالقها.

وما نقصد أن يعرف الإنسان أن له خالقاً، وأن له ربّا؛ ليس هذا هو الإيمان بالله .

وإلا فقد كان العرب فى الجاهلية يعلمون أن الله موجود[1] ويعلمون أنه خالق السموات والأرض، كما يُسجل عليهم القرآن: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله** ﴾ [سورة لقمان الآية: ٢٥].

ويعلمون أنه يجير ولا يجار عليه، ويعلمون أن بيده ملكوت كل شيء، ومع ذلك سماهم الله في كتابه العزيز: ﴿ **الَّذين لا يَعْلَمُون** ﴾ [سورة الجاثية الآية: ١٨] .

لماذا؟ وقد سجل عليهم أنهم يعلمون وجود الله، ويعلمون من صفاته أنه خالق السموات والأرض، ومدبر الكون الذي يُجير ولا يُجار عليه؟

نعم. إن المعرفة الذّهنية الباردة الميتة لا حساب لها في الإسلام لأنه لا حساب لها فى عالم الواقع. لا تؤثر في سلوك الإنسان، فهى موجودة كغير موجودة. ولذلك وصفهم بأنهم الذين لا يعلمون، بعد أن سجل عليهم أنهم يعرفون كل ذلك.

إنما المعرفة التي يريدها الإسلام، والتي يطلبها القرآن منا: هي المعرفة الحية التى لا تظل معلومات باردة في الذهن، ولكن تنتقل إلى القلب، فتحرك

---

(١) مقصد المؤلف (المحاضر) - حفظه الله - أن العرب في الجاهلية كانوا يقرّون بربوبية الله ويعلمون بذلك، وأن ذلك ثابت لديهم. فالأولى عدم استخدام لفظة (موجود)، فإن الموجود: الذى قد أوجده أحد؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الوجدان، فتتحول إلى سلوك عملي في واقع الأرض.

هذه هي المعرفة الحقة.

وهذا هو الإيمان الحق بالله.

وهذه هي الخصيصة الأولى للإنسان الصالح: الإيمان بالله. إيمان حقيقى، يعيش مع الله حياته كلها، فكره وشعوره وسلوكه. هذا هو الإيمان. ومع الإيمان بالله: الإيمان باليوم الآخر. تلحظون في كثير من مواقع القرآن أن القرآن قرن الإيمان باليوم الآخر مع الإيمان بالله، يقول في وصف المؤمنين: ﴿ يُؤمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخرِ ﴾ [سورة آل عمران: ١١٤]. ويقول فى وصف الكفار: ﴿ لا يُؤمِنُون باللهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ﴾ [سورة التوبة الآية: ٢٩].

هذا الربط الشديد بين الإيمان باليوم الآخر والإيمان بالله لابد أن يدلنا على أن الإيمان باليوم الآخر شئ عظيم جداً في الإسلام، وإنه كذلك.

إنه بغير الإيمان باليوم الآخر لا تستقيم الحياة، والإيمان بمعنى اليقين لا مجرد المعرفة الذّهنية، كالتى نحفظها في الدروس، لنكتبها في الامتحان، فإذا فرغنا من الامتحان ألقيناها من قلوبنا ومن ذاكرتنا.

ماذا يصنع هذا الإيمان فى حياة البشر؟

فلننظر من الناحية الأخرى: كيف يصنع الخواء من الإيمان باليوم الآخر في حياة البشر؟

حين لا يؤمن الإنسان باليوم الآخر فإن القضية في حسه تكون هكذا: **العمر فرصة وحيدة قصيرة مهما طالت، ولو طالت ألف سنة، فهي فرصة واحدة، وإن ذهبت لا تعود، فالحكمة - المقلوبة! - تقتضي أن ينتهب أكبر قدر من اللذات في هذه الفترة القصيرة المحدودة، التي تمضى ولا تعود.**

هذا أثر عدم الإيمان باليوم الآخر في حياة البشرية. والجاهليات كلها من ثم تتكالب على الشهوات. ولا يمكن أبداً في التاريخ ضبط شهوات الجاهلين، لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر.

فالحياة في حسهم فرصة واحدة قصيرة ضئيلة إن ذهبت لا تعود ... إذاً لابد أن ينتهب فيها أكبر قدر من اللذات.

وما يمكن أبداً أن يقتنع الإنسان بأن يلتزم بحدود الله التى قال عنها: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾ [سورة البقرة الآية:٢٢٩] يعنى عيشوا في داخلها ولا تتعدوها.

لا يمكن أن يقنع الإنسان بأن يلتزم بحدود الله إلا إذا أيقن يقيناً جازماً راسخاً أن ما يتركه هنا في الأرض من المتاع الزائد عن الحد يعوض عنه في الآخرة بالنعيم الخالد الطيب الذى لا يزول أبداً، والذى لا يقلق الإنسان عليه أبداً. فهنا المعادلة تصبح واضحة: تبيعُ هذا المتاع الزائف الزائل الذى أول عيوبه دائماً قلق على ذهابه –تبيعه– وتشترى به ذلك النعيم الخالد، الذى فيه مَا لا عَينٌ رأت ولا أذن سَمِعَت ولا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ [1].

---

(١) قال تعالى: ﴿ فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفيَ لهم من قرةِ أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ [السجدة:١٧]

– وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: « قال الله: أعددتَ لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..». أخرجه البخارى في صحيحه (رقم٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، و(رقم ٤٧٧٩، ٤٧٨٠) كتاب التفسير، و (رقم ٨٤٩٨) كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٤/٢-٤) كتاب صفة الجنة.

– وأخرج مسلم أيضاً (٢٨٢٥/٥) – كتاب صفة الجنة أيضاً – من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول: شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة =

الإيمان باليوم الآخر إذاً هو الضابط الذى يقنع الإنسان أن يعيش فى حدود ما أنزل الله، يلتزم بهذه الحدود، لا خوفاً من سلطان الحاكم، إنما بوازع من ضميره.

يلتزم بحدود الله، فتستقيم حياته في الأرض.

ولا يمكن أن تستقيم الحياة إلا إذا التزمنا بحدود الله، ولا يمكن أن نلتزم بحدود الله عن طاعة وعبادة وطواعية إلا إذا استقر فى حياتنا أننا حين نعبده يعوضنا عن هذا الحرمان الظاهر بمتاع كبير دائم خالد فيه مَا لا عَينٌ رأتْ ولا أُذُن سَمِعت ولا خَطر عَلى قَلبِ بَشَر من هنا يكون الإيمان بالله واليوم الآخر أول خصِّيصة... وأكبر خصيصة... وأبرز خصيصة ... للعبد الرباني، للإنسان الصالح الذى يربيه القرآن.

ومن هنا يقول القرآن في وصف المتقين، فى مفتتح سورة البقرة: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [سورة البقرة الآية:٣] أول صفة يصف بها المتقين أنهم الذين يؤمنون بالغيب، لأن الإيمان بالله وباليوم الآخر لا يأتي إلا عن طريق الإيمان بالغيب .

وهنا تبدو لنا الهوة السحيقة بين مناهج الجاهلية ومنهج الإسلام، مناهج

= حتى انتهى، ثم قال ﷺ في آخر حديثه: « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر...» .

– وأخرج مسلم أيضاً هذا اللفظ – ضمن سياق طويل – من حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه، وفيه: « قال: ربِّ! فأعلاهم منزلة؟! قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر ». انظر صحيح مسلم (٣١٢/١٨٩) كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة .

الجاهلية تقول: الغيبيات تأخر... الإنسان الذي يؤمن بالغيبيات إنسان مؤمن بالخرافة، إنسان رجعي، إنسان لا يستطيع أن يقوم بعمارة الأرض.

لا يستطيع أن ينشط .. لا يستطيع كذا ... كذا ... لأنه يؤمن بالغيبيات، وتأكل قلبه هذه الغيبيات.

والإسلام يقول إن أول صفة للإنسان الصالح التقي أنه يؤمن بالغيب، لأن الإيمان بالغيب هو الطريق للإيمان بالله واليوم الآخر. وهما المفتاح الأكبر لإصلاح قلب الإنسان. الإيمان بالغيب في الإسلام شئ ضخم جداً. إنه الكوة التى يدخل منها النور إلى قلب الإنسان، إنها الصلة الروحانية التى تربط هذا القلب البشرى بخالقه فيستضئ... فيعود فيعمل في واقع الأرض وهو مستضئ بنور الله.

إنها ليست مسألة عابرة، تكون أو لا تكون، كما تنظر إليها الجاهلية؛ كلا، إنها أمر رئيسي في تكوين الإنسان الصالح، ولذلك فهى أمر رئيسي فى منهج التربية الإسلامية .

بهذه الصلة الروحانية، التى تتلقى من عند الله، التى تحس بالله سبحانه وتعالى، تحس بعونه، تتطلع إليه في الملمات، ترجوه.. تخافه.. تتقيه.. بهذه الصلة الروحية يستقيم حال الإنسان في الأرض. يعمل في واقع الأرض وقلبه معلق بالسماء. وهذا هو الفارق بين الإنسان الصالح وأى مواطن صالح في أى بقعة في الأرض، همه كله منصرف إلى الأرض، ولا يلتفت أبداً إلى الله. أما الإنسان الصالح فهو ينشط بكل جوانبه كما سنرى، ومع ذلك لا ينسى ربه.. لا ينسى هذه الصلة التى تملأ قلبه بالنور، ثم تكون هى الدافع لعمارة الأرض، كما كانت هى الدافع للجيل الأول، الذي حقق أكبر تحقيق قوله تعالى:

﴿ كُنتُم خَيرَ أمَّةٍ أُخرجَتْ للنَّاس .. ﴾ [سورة آل عمران الآية: ١١٠].

هل كان هذا الجيل يؤمن بالخرافة؟ هل قصر هذا الجيل في نشر دعوة الله؟ فى عمارة الأرض؟ أو في إقامة الحق والعدل فى الأرض؟

كلا.. ما قصر..

وقد كان فى قمة الإيمان بالغيب، الإيمان بالله واليوم الآخر.

نمضي مع المنهج الرباني: فنجد من خصائص هذا المنهج الشمول؛ بمعنى أنه يشمل كل جوانب الإنسان، وكل ألوان نشاطه. كلها داخلة فى منهج التربية الإسلامية. هناك مناهج تربية نعرفها في الجاهلية المعاصرة، تقول مثلاً :

السياسة لا علاقة لها بالأخلاق، طبعاً (مكيافللي) كان أمير هذا المذهب، ثم اعتنقته أوربا بسهولة، لأنه يوافق طباعها. بعد قليل قالوا: الاقتصاد ليست له علاقة بالأخلاق لماذا ؟! لأن الأخلاق الربانية تُحرِّم الربا ، واليهود وأتباع اليهود لا يستغنون عن الربا، والرأسمالية كلها تعيش على الرِّبا. فلو التزموا بأمر الله فسيلتزمون بتحريم الرِّبا، وهم يريدون أن يمتصوا أموال الناس، وينقلونها إلى حوزتهم، فقالوا: الاقتصاد ليست له علاقة بالأخلاق، ومضى الزمن، فإذا هم يقولون أعجب ما يقولون: إن العلاقة الجنسية ليس لها علاقة بالأخلاق! سبحان الله!

ماذا بقى إذاً من الأخلاق؟!

يقولون: هذه علاقة (بيولوجية) – يعنى علاقة ذكر بأنثى – وليس للأخلاق علاقة بها.

ماذا بقى إذاً من الفروق بين الإنسان وبين الحيوان؟! هذا الحيوان، الذكر والأنثى، يلتقيان لقاء الغريزة، يلتقيان لقاء جسد بجسد، ولا يقال عن عملهما

إنه أخلاقى أو لا أخلاقى.

ويُراد للإنسـان أن يكون كالبهيمة. الذكر والأنثى يلتقيان فى الشارع أو الحديقة أو البحيرة ! بل على المسرح كذلك! فالمسرح الأوربي الآن تقدم تقدماً هائلاً، وصار يمثل فى مسرحياته العملية الجنسية كجزء من المسرحيــة! لــماذا؟! .

لأن الجنس ليس له علاقة بالأخلاق .

هذه نماذج من التربية الجاهلية.

أما المنهــج الربــاني فــلا يُخــرج شــيئاً أبــداً خــارج الأســاس الأخلاقى.. لا السياسة، ولا الاجتماع، ولا العلاقات الجنسية، ولا الفن، ولا أي عمل من أعمـال الإنسان. لا يمكن أبداً أن يخرج شيء من هذا عن ميزانه الأخلاقى، وإلا فإن إنسانية الإنسان هي التى تضيع .

إن مزية الإنسان أنه المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن يسير على أحد دربين: ﴿ **ونَفس وَمَا سَوَّاها * فَألهَمها فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أفلحَ مَن زكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهـا** ﴾ [سورة الشمس الآيات: ٧-١٠]، ﴿ **إنا هديناه السـبيلَ إمـا شاكـراً وإما كفوراً** ﴾ [سورة الإنسان الآية:٣]، ﴿ **وهديناه النجـدين** ﴾ [سورة البلد: آية١٠]، هو المخلوق الوحيد الذى نعرفه الذى يستطيع أن يميز بين الطريقين، ويختار أحد الطريقين. الحيوان له طريق واحد ملتزم به، طريق الغريزة، طريقة الجسد .

الغـريزة تأمره بالطعـام، وتأمـره بالكف عن الطعـام، الغريزة تأمـره بالنشـاط الجنسي، وتأمره بالكف عن النشاط الجنسي، ليس له اختيار فى هذا ولا ذاك.

والمَلَكُ – من جانب آخر – له طريق واحـد، ومـا يستطيع أن يغيـر طريقـه: الطريق النورانى الروحانى الشفيف. إنه ملتزم بعبادة الله: ﴿ **لا يَعـصُونَ اللهَ مَا**

أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة التحريم الآية: ٦] إذاً فله طريق واحد، ما يستطيع أن يخرج عنه.

أما الإنسان، فهوالمخلوق الوحيد الذى له طريقان. وكُرم بأن يختار طريقه، وهذا الاختيار تكريمٌ من الله له: **﴿ وَلَقَدْ كَرَّمنا بَنى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُم فى البَرِّ والبَحْرِ ورَزَقْنَاهُم منَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْنَاهُم على كَثيرٍ ممن خَلَقْنَا تَفضِيلاً ﴾** [سورة الإسراء الآية: ٧٠] . من هذا التفضيل... من انشعاب الحياة البشرية شعبتين.. ومن قدرته على التمييز .. وقدرته على الاختيار: نشأت القيم الخلقية، لأنه مادام هناك طريق خير، وطريق شر، إذاً فهناك مقياس خلقى للأعمال، ولا يمكن أن يخلو عمل واحد من أعمال الإنسان من قيمته الخلقية، لأن كل عمل إما أن يكون خيراً وإما أن يكون شراً. والإنسان يختار إما طريق الخير وإما طريق الشر. فإذا جردناه من هذا التكريم الربانى وقلنا:

* السياسة لا علاقة لها بالأخلاق.
* الاقتصاد ليس له علاقة بالأخلاق .
* العلاقة الجنسية ليس لها علاقة بالأخلاق.

ماذا بقي إذاً من الإنسان؟ لقد ارتد أسفل سافلين: **﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فى أَحْسَنِ تَقويمٍ ﴾** [سورة التين الآية: ٤] ... حين يكون له ميزان خُلُقيٌّ، يقاس به عمله، خَيِّرٌ هو أم شرير ... ولكن حين ينتكس أسفل سافلين لا يجد لأعماله مقياساً خلقياً، إنما يقول: هذا عمل بيولوجي! هذا عمل تفرضه الحتمية الاقتصادية... إلخ. إذاً فقد خرج عن إنسانيته.

الإنسان المسلم، الذى يتربى على منهج التربية الإسلامية إنسان منضبط بمقاييس أخلاقية، لا يخرج عمل واحد من أعماله عن هذه المقاييس.

وهنا سؤال: من الذى يحدد هذه المقاييس الأخلاقية؟ من الذى يقول هذا حلال وهذا حرام.. هذا حسن وهذا قبيح.. هذا مباح وهذا غير مباح؟ الخالق سبحانه بما أنه خلق، ﴿ ألا لَهُ الخلقُ وَالأمرُ ﴾ [سورة الأعراف الآية:٥٤]، يعنى له الأمر بما أنه هو الخالق . وعلى من يريد أن يكون له الأمر في الأرض أن يكون خالقاً كالله سبحانه وتعالى إن استطاع! فما دام لا يوجد إلا خالق واحد فلا ينبغى أن يكون هناك إلا آمر واحد هو الله سبحانه وتعالى.. هو الذى يحدد المقاييس، فيقول هذا حلال وهذا حرام.. هذا حسن وهذا قبيح.. هذا مباح وهذا غير مباح.

فإذا كان البشر هم الذين يحددون فقد علمنا من تَتَبُّع التاريخ الجاهلى كيف يقول البشر اليوم شيئاً وينقضونه غداً !

*** في يوم من الأيام كانت السرقة والجريمة بطولة في المجتمع اليونانى!!!**

كان الذى يسرق ويستطيع أن ينجو فلا يُقبض عليه يُصبح بطلاً! ولكنه يكون مجرماً إذا سمح للناس أن يقبضوا عليه.. ليست الجريمة في ذاتها هى الجريمة، ولكن إذا استطعت أن تنجو بجريمتك فأنت بطل! وإذا وقعت في يد الناس فأنت مجرم!

هذا كان اختيار البشر، وحُكم البشر، فى يوم من الأيام.

واليوم يقولون: إن الجريمة الجنسية ليست جريمة لأن الجنس ليست له علاقة بالأخلاق. هذا تقدير البشر، وحكم البشر. فمن الذى يضع مقياس الأخلاق غير الخالق سبحانه؟

فبما أنه هو الخالق، وبما أنه هو الحكيم الخبير، الذى يعلم ما يصلح للناس، وما يصلحهم، فهو الذى يضع المنهج الأخلاقى. والمسلم – أى الإنسان الصالح

- يلتزم بهذا المقياس الخلقي الذى يشمل كل أعماله. ثم إن المنهج الرباني لا يترك جانباً من جوانب حياته بغير تدريب وبغير توجيه. السياسة له فيها توجيه وتدريب، الاقتصاد له فيه توجيه وتدريب، الاجتماع له فيه توجيه وتدريب... علاقة الأسرة.. علاقة الحاكم بالمحكوم.. علاقة الفرد بالفرد... علاقة الجنس.. كل شيء يعمله الإنسان للإسلام فيه تدريب وتوجيه.

فهذا المنهج الرباني شامل، وفي ذات الوقت متوازن، وهذه مزية أخرى للمنهج الرباني، قد يوجد منهج يُطلق طاقات الإنسان كما يطلقها المنهج الرباني، لكن على غير توازن، فيصبح الإنسان يميل بكفته هذه أو بكفته تلك. بعض الجاهليات تضخم جانب الروح جداً على حساب الجسد، كالجاهلية الهندية القديمة، كانت تطهر الروح -كما تقول- بتعذيب الجسد، ومن هنا نشأ النوم على المسامير، وأكل الزجاج، والمعيشة مع الثعابين السامة، كلون من ألوان تعذيب الجسد -في وهمهم- لتطهير الروح.

وجاهليات أخرى، كالجاهلية الرومانية، كانت تُقدس الجسد على حساب الروح.

والجاهلية اليونانية كانت تقدس العقل على حساب الروح .

والوريث للجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية: هو جاهلية القرن العشرين فى أوربا، إنها الوريث المباشر، وهذا باعترافهم هم. إن حضارتهم (جريكورومان Greco-roman) يعنى مستمدة من الأصول اليونانية والرومانية، وهى حقاً كذلك، فيها تقديس العقل، ومنها تقديس الجسد، على حساب الروح.

الإسلام متوازن. ففي ذات الوقت الذى يُطلق فيه الطاقات البشرية كلها لتعمل يوازن بينها، فلا يطغى جانب على جانب، لا يطغى الجسد على

الروح، ولا يطغى العقل على الجسد، ولا تطغى الروح على العقل أو الجسد.

توازن فى كل اتجاه.

يطلق الطاقات الحيوية كلها لا يكبتها.

لا كبت في الإسلام أبداً .

الكبت، هذه الكلمة، التى انتشرت فى أرجاء الأرض كلها، من بعد (فرويد)، ونشرت بخبث شديد لإفساد الأخلاق، لأنها ارتبطت فى ذهن الشباب بالجنس: إذا كان الشباب لا يمارس نشاطه الجنسي فسيعانى الكبت. هكذا نشرت تعاليم (فرويد) بهذه الصورة، مع أن (فرويد) نفسه يعترف فى كتاب من كتبه بأن الكبت ليس هو الامتناع الواعى عن إتيان العمل الغريزى. فهذا كما يقول (فرويد) مجرد تعليق لعمل (Suspension)، لكن الكبت هو استقذار الدافع الغريزى واستنكاره، يعنى إذا أحس الإنسان أن الدافع الجنسى دافع قذر في جميع أحواله لا ينبغى للإنسان أن يمارسه في أى صورة مشروعة أو غير مشروعة : هنا ينشأ الكبت .

و(فرويد) – أبو الكبت – هو نفسه يقول إن الذى يشعر بالكبت لا يعالجه إتيان العمل الغريزى، لأنه فى كل مرة يأتيه وهو شاعر بالاستقذار، فتزيد عملية الكبت، ولا تنحل العقدة. لكن إذا كان الإنسان يمتنع بإرادته وبوعيه عن إتيان العمل الغريزى فلا يحدث الكبت.

وفي معاهد التربية بصفة خاصة، وفى العالم الإسلامى كله، يدرسون (فرويد) ونظرياته، وينظرون إليه نظرة تقديس. وقد انتشر فى كل الأرض أن الامتناع عن ممارسة الجنس يحدث الكبت، ويحدث الاضطرابات العصبية.. ما علينا..

نحن لا نستمد منهجاً من (فرويد) ولا من غيره، وإنما نستمد منهجنا من الإسلام، ولكن بالمناسبة نقول: إن المنهج الإسلامي لا يكبت، إنما يضبط منطلقات الطاقة الحيوية، وفارق كبير بين الضبط والكبت .

* **الضبط**: عملية واعية .. عملية إرادية .

* **الكبت**: عملية غير واعية.. عملية مؤذية - إن وجدت فعلاً -. لكن حين يقول الإنسان لنفسه - طاعة لله وعبادة -: أنا سأعمل كذا ولا أعمل كذا: فهذا ضبط، وليس كبتاً .

والمنهج الرباني لا يكبت، بل يطلق الطاقة الحيوية، ولكنه يضبط منطلقاتها وينظفها، مثل القناطر. القنطرة: هي السد الذي ينبى في طريق الماء، ليرفع مستواه، ثم يصرف الماء بعد رفع مستواه في قنوات جانبية، هذه هي القنطرة أو السد.

مثل ذلك تماماً يفعله المنهج الرباني، إن السد لا يقف فى طريق الماء، لأنه لو وقف فى طريقه يتحطم! ولا يمكن أبداً وقف التيار. إنما هو يضبطه.. يرفع مستواه .. يرفع منسوبه.. ثم يحوله إلى قنوات جديدة، فتروى أراض جديدة، فيثمر أكثر مما لو كان جارياً في مجرى النهر الأصلى.

والإسلام - أو المنهج الرباني في التربية - يصنع ذلك مع الطاقة الحيوية الإنسانية، لا يقطع عليها السبيل، ولكن يقيم أمامها قنطرة ترفع مستوى الدافع الغريزى. فلا يصبح حسياً، إنما يصبح جسداً و روحاً في وقت واحد، ويصرف الطاقة المحجوزة في منطلقات جديدة، فتصنع حضارة، بدلاً من أن تذهب كلها فى المجرى الأصلى للدافع الغريزى، فهو يضبط ويرفع المستوى، وينظف ولا يكبت، فى ذات الوقت الذى يطلق منه الطاقة الحيوية فى جميع الاتجاهات.

ولا يعطل أى طاقة مما خلق الله فى النفس الإنسانية، لأنه خلقها لكى تعمل، لا لكى تهمل، ولا لكى تكبت. وفي الوقت الذى يطلقها: يوازن بينها، فيصبح الإنسان متوازناً، لا يميل بكفته هذه، ولا يميل بكفته تلك، لأنه يسير على المنهج الربانى، والمنهج الربانى تكفل بإحداث التوازن في النفس البشرية، فهو شامل، وهو متوازن في ذات الوقت.

* * *

والمنهج الربانى يربى الناس على الاستقلالية، بمعنى أن كل إنسان مسؤول عن عمله: ﴿ كُلُّ نفس بما كَسَبَتْ رَهِينَة ﴾ [سورة المدثر الآية:٣٧]. هكذا يربى الإسلام الناس على الشعور بالتبعة الفردية. كل إنسان مسؤول عن عمله، يُجازَى عليه، لا ينفعه أحد في الآخرة يوم يقف بين يدى الله. وهذا الشعور بالتبعة الفردية هو لون من ألوان التربية الاستقلالية للإنسان .

بعض المناهج الجاهلية - الإنكليزية بصفة خاصة ووريثتها الآن التربية الأمريكية - تُربى الناس تربية استقلالية حقيقية. ولكن ما الفرق بين التربية الاستقلالية الجاهلية والتربية الاستقلالية الإيمانية الربانية؟

هناك يتربى الناس تربية استقلالية.. كل إنسان بشخصيته الذاتية إيجابى فعال، يقتحم الأمور بذاته، لا ينتظر كالسلبيين والضعفاء، لا ينتظر المعونة من الآخرين، بل يقتحم الأمور بنفسه... هذا طيب... ولكن فى مقابل ذلك تصل هذه الاستقلالية عندهم إلى حد تقطيع الروابط بين البشر بعضهم وبعض. كل إنسان جزيرة واحد، لا تلتقى بغيرها من الجزر فى خضم الحياة الواسعة إلا لقاء صراع، أو لقاء مصلحة قريبة، أو لقاء شهوة، فى غير ذلك لا يلتقى البشر. لا يلتقون لقاء الأُخوَّة.. لقاء الإنسانية.. لقاء الحب.. لقاء التراحم.. لقاء التواد..

ليس هذا فى حسابهم، لماذا؟ لأن التربية الاستقلالية عندهم قائمة على قاعدة جاهلية.

أما التربية الاستقلالية الإسلامية ففى الوقت الذى تربى فيه الفرد على حمل تبعة نفسه، والسعى بنفسه، واقتحام المشاكل بنفسه، والإيجابية والفاعلية، تربيه - فى ذات الوقت - على حب الجماعة، والالتصاق بها، والتواد معها، والتراحم معها.

يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [سورة الحجرات: ١٠]، فيقوم بينهم شعور الأُخُوَّة.

﴿ رُحَمَاءُ بينهُمْ ﴾ [سورة الفتح الآية: ٢٨]، فيكون بينهم شعور الرحمة.

«المؤمن للمؤمن كالبنْيَان المرصُوص يَشُدُ بَعضه بَعْضاً» [١]، أو كما جاء فى الحديث الآخر: « مَثَلُ المؤمنين فى تَوادِّهم وتعاطُفهم وتراحُمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عُضو تَدَاعى له سَائر الجسد بالحمّى والسّهَر » [٢]. هذا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى فى صحيحه (رقم ٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦) كتاب الصلاة، والمظالم، والأدب، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٥٨٥) كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين، وغيرهما، من حديث أبى موسى الأشعري رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً » - وشبّك أصابعه - .

(٢) متفق عليه: أخرجه البخارى في صحيحه (رقم٦٠١١) كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ومسلم (رقم٢٥٨٦) كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين، وغيرهما، من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى »وانظر الصحيحة (١٠٨٣) .

هو المنهج الرباني: شخصية استقلالية، وفى ذات الوقت: ارتباط بالآخرين بروابط المحبة والمودة والإخاء، ليس كل إنسان جزيرة واحدة، منقطعاً عن الآخرين.

هذا طبعاً إلى جانب مكارم الأخلاق: من صدق، وأمانة، وانضباط، ودقة، وإتقان فى العمل.. مما قد تشارك المناهج الجاهلية فيه المنهج الإسلامى. ولكن كذلك يوجد فرق.

أوربا الحالية، وأمريكا، تُربِّيان على فضائل براقة جميلة. ففي أمريكا يعودون الطفل على الأمانة، ويصل الأمر فى تربية المجتمع على الأمانة - بصرف النظر عن الجرائم- إلى أن الصبى هناك يستقل - لأنهم يربون الأطفال على الشغل وهم صغار - فهو يذهب ليعمل فى وسط الوقت المدرسى تكون عنده حصة فارغة فى الجدول فيخرج يشتغل بالساعة، وهناك نظام للعمل بالساعة، حتى ييسروا العمل لكل إنسان، ففى إمكانه أن يعمل ساعة بكذا دولار، وغالباً ما يعمل الصبيان الصغار فى بيع الصحف، أو فى نقل زجاجات اللبن إلى البيوت، فالصبى وهو ذاهب إلى المدرسة يأخذ زجاجات اللبن ويتركها على الأبواب، لأن الناس لا يكونون قد استيقظوا بعد، فلا يسرق منها شيء، الباب مقفول، والزجاجات على عتبة الباب، لا يسرق منها شيء. وبائع الصحف قد يأتى وقت دراسته لأنه تلميذ يدرس فيترك الصحف، ويترك النقود مما حصله من ثمن الصحف، يترك كومة من النقود فوق كومة من الصحف، ويأتى الشارى فيأخذ نسخته إذا لم يجد الصبى، ويضع ثمن الصحيفة فوق كومة النقود، ولا يُسرق منها شيء.

هذه تربية جميلة ولا شك. فالتربية على الأمانة شيء جميل.

ولكن هناك أخلاق نفعية.

هى أخلاق التاجر الناجح، الذى يجلب إليه الزبون بالأمانة والصدق، فالتاجر البعيد النظر لا يخدع زبونه، لأنه يعلم أنه إن خدعه لا يعود إليه ثانية، ولكن إن صدقه وكان أميناً معه فهو يجتذب رضاه، فيأتى إليه مرة أخرى. هذه الأخلاق التجارية النفعية هى السائدة في أوروبا، والدليل على ذلك أنه حيث يخرج من دائرة القومية يبيح لنفسه أن يغش ويخدع ويسرق وينهب، لأن الضابط كان ضابط المصلحة. هنا وجد مصلحة فى الغش والسلب والنهب، وهناك مصلحته فى الأمانة .

والأخلاق الإسلامية قد تكون فى الظاهر مشابهة لتلك الأخلاق، فى الصدق والأمانة، وتربية الناس على عدم السرقة، وعدم الخداع.. إلخ، ولكنها عميقة فى النفس . إنها ليست لجلب المصلحة، لكن لإرضاء الله. فالمسلم لا يصدق لأن الصدق يجلب له منفعة؛ إنما يصدق إيماناً بالله، وطاعة لله، ثم يجيء الربح عن طريق الصدق، لكن المسلم - العبد الرباني - لا يتخذ هذه الأخلاق للحصول على الربح، إنما للحصول على مرضاة الله سبحانه وتعالى.

تلك خصائص المنهج الرباني .

المنهج الربانى يربى - كما قلت - إنساناً صالحاً، يعبد ربه، ومن خلال عبادته لربه يحترم الإنسان من حيث هو إنسان، ويحترم الحق من حيث هو حق، ويلتزم بالأخلاق لأنها تجلب له المصلحة، لكن التزاماً بالميثاق بين الإنسان وبين الله... ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُم سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ [سورة المائدة الآية: ٧] .

* * *

واليوم ننظر على وجه الأرض، فلا نرى ذلك المنهج الإسلامي مطبقاً فى الواقع، حتى أن كثيراً ممن يستمعون إلينا ونحن نتحدث أو يقرأوننا ونحن نكتب يقولون:

أين هو؟ إنها خيالات، إنها مثاليات جميلة غير قابلة للتطبيق الواقعى. أما المناهج التى تصفونها أو تصمونها بأنها مناهج جاهلية فإنها مناهج مثمرة، ترى ثمرتها في واقع الأرض... ترى الإنكليزي عاملاً فى الأرض نشيطاً إيجابياً... ترى الأمريكى يستعمر وجه الأرض بنشاطه وبتقدمه العلمى والمادي... ترى روسيا - أو المذهب الشيوعى - احتل نصف الأرض، ألف مليون من البشر اعتنقوا المذهب الشيوعى، وهم - تقريباً - نصف الأرض. فأين هو ذلك المنهج الإسلامى الذى تحدثوننا عنه؟ خيالات.. مثاليات غير قابلة للتطبيق الواقعى... ماقيمتها؟ فلتكن المناهج الجاهلية أضأل حجماً، وأقل ثمرة، لكنها ثمرة واقعية، فخير لنا أن نأخذ هذه الثمرة، وإن كانت معطوبة، من أن ننتظر ثمرة لا وجود لها...

هذا القول الذى يقوله شباب كثير على وجه الأرض، بعضهم من المسلمين، وبعضهم من الذين يتفرجون على المسلمين، هو قول مع الأسف ظاهر الصدق، وهذه تبعتنا نحن... تبعة الذين يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ثم لا يطبقون فى واقع حياتهم ذلك المنهج الذى أمر به الله ورسوله.. تبعتنا نحن إزاء أنفسنا.. إزاء شبابنا.. وإزاء البشرية.. ما خلقت هذه الأمة لتعيش فى حدود ذاتها أبداً ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاس ﴾ [سورة آل عمران الآية: ١١٠]، ﴿ وكَذَلِكَ جَعلناكُم أُمةً وَسَطًا لتكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيكُونَ الرَّسُولُ عَليكُم شَهِيدًا ﴾ [سورة البقرة الآية: ١٤٣].

إن هذه الأمة ما خلقت لتؤمن لذاتها، ولتعيش لذاتها، ولتطبق المنهج الرباني

لذاتها... ولكن خُلقت لتكون هى الأمة الرائدة... الأمة القائدة التى تمسك بالزمام، الأمة التى ترشد البشرية كلهــا إلى المنهج الحق، فأين نحن مما كلفنا الله به؟

أين نحن من قيادة البشرية؟

بل نحن الآن فى الوضع الذى ترون.. فى هذا الهـوان الذى يعـيش فـيـه المسلمون على وجه الأرض، حتى صار ينطبق علينا قول الشاعر القديم:

ويُقضــى الأمــرُ حين تغـيبُ تيــم
ولا يُستأذنــون وهــمْ شهــود

تُقضى أمور البشرية كلها والمسلمون شهود، فلا يستأذنون، وفى غيابهم تُقضى الأمور.

كيف تحولنا من الأمة القائدة الرائدة، التى تهدى البشرية كلها للحق، وتظل البشرية كلها بالعدل الرباني، وبالحق الربانى، ولو لم تدخل فى دين الله.. كيف تحولنا من ذلك إلى هذا الغثاء الذى تنبأ به رسول الله ﷺ فى ساعة من ساعات الكشف الربانى حين قال: « يوشك أن تَدَاعى عَلَيكُم الأمم » - تداعى.. تتداعى، يدعو بعضهم بعضاً، هلموا... هنا أكلة طيبة، تعالوا كلوا -

قالوا: أمن قلة نَحنُ يومئذ يا رسُول الله؟ قال: « لا، بل أنتم كثير يومئذ ولكنكم غثاء كغثاء السيل »[1]- أو كما قال عليه الصلاة والسلام - نحن مع الأسف هذا الغثاء الذى تنبأ به الرسول ﷺ. خمسمائة مليون أو ستمائة مليون أو سبعمائة مليون، فى تقدير بعض المقدرين. ماذا يصنعون؟ ما ثقلهم؟ ما وزنهم؟ ولماذا صاروا هكذا؟ لأنهم لا يطبقون المنهج الربانى فى واقع

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد وأبو داود وابن أبي شيبة والطيالسي والطبراني وغيرهم، من حديث ثوبان رضى الله عنه، وانظر تخريجه هنا (ص ١٢٨) في مقال : « الإعلام الإسلامى » .

حياتهم. إنه منهج واقعي... إنه ليس شعارات... وما كان أبداً شعارات. لقد طبق في واقع الأرض، والذى طبقه بشر، ونحن بشر.. بشر لا يختلفون عنا فى شيء. لم تكن بشريتهم زائدة عن بشريتنا. إنما كان الفرق أنهم أخذوا هذا المنهج، بجديته الكاملة. طبقوه عبادة لله، وطاعة لله، فنصرهم به تحقيقاً لوعده: ﴿ إن تنصُروا اللهَ ينصُركم ويُثبِّتْ أقدَامكُم ﴾ [سورة محمد الآية: ٧]، ﴿ وَعَدَ اللهُ الّذينَ آمنُوا منكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَستخلِفنَّهُم فى الأرْض كما استخْلفَ الّذينَ مِن قَبْلِهم وَلَيُمكِّنَنَّ لَهمْ دِينَهُمُ الذي ارتَضَى لَهم ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعْدِ خَوْفِهِم أمنًا يَعبُدونَنى لا يُشْركُونَ بى شَيئًا ﴾ [سورة النور الآية:٥٥] .

هذا هو الشرط.

قال الله أعطونى هذا الشرط، وأنا أتكفل لكم بالاستخلاف، والتمكين، والتأمين فى الأرض..

وكنا كذلك يوم كنا نصدق الله. كان يصدقنا وعده، وكانت هذه الأمة بالذات هى الأمة الشاهدة... هى الأمة القائدة... هى الأمة التى تهدى كل البشرية إلى طريق الحق .

واليوم نحن فيما نحن فيه.. لكن.. إن هناك بعثاً، وبشائر هذا البعث موجودة الآن. وإن وعد الله الصادق الذى جاء على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام أن هناك جولة قادمة للإسلام: «حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله ورائي يهودي فاقتله» [1]. لا شك فى وعد الله. هذه الجولة قادمة

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (رقم٢٩٢٥، ٣٥٩٣) كتاب الجهاد، باب قتال اليهود ، وكتاب المناقب ، باب علامات النبوة ، وأخرجه مسلم (رقم ٢٩٢١) كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل..، وغيرهما، من حديث ابن عمر مرفوعاً ولفظه:=

وبشائرها قائمة في هذا البعث الإسلامى الموجود فى كل مكان فى الأرض .

وإن من الدلائل المبشرة، التى لا تخفى دلالتها، أن يكون فى تركيا - بعد كل ما صنعه أتاتورك لقتل الإسلام - حركة إسلامية نشيطة! أن توجد فتاة ترتدى زى الإسلام، وتتحدى به، وتقول: أنتم تقولون إنني رجعية، أنا رجعية!! ولن أكف عن هذه الرجعية - تقول: إننى رجعية سخرية منهم - لأننى أنفذ شرع الله.

وجود هذا بشير ودليل. ووجود حركة إسلامية فى أمريكا الصليبية التى تتزعم اليوم حرب الإسلام وأقصد الحركة المهتدية لا الحركة الضالة - هناك حركتان للمسلمين السود فى أمريكا، حركة (مالكولم إكس) الذى قتلوه هى الحركة (المهتدية) - وجود هذه الحركة فى قلب قلعة الصليبيين دليل بشير. ووجود أفراد يتكاثرون فى أوروبا، يعتنقون الإسلام... هذه ظاهرة لم تعد حالات فردية، إنما صارت ظاهرة لها دلالتها، فقد كان الحقد الصليبى حائلاً بين أوروبا وبين الإسلام، حائلاً بينهم وبين النظرة الحقة العادلة غير المتحيزة للإسلام، فالآن صاروا يدخلون فى الإسلام. دلالة هذا أن حالة الضياع المرة التى تعانيها أوروبا صارت أشد لذعاً من الحقد الصليبى. ووصل بهم إلى أن يقفزوا هذا الحاجز الذى منعهم من الدخول فى الإسلام فيما مضى، فصاروا يدخلون فى الإسلام اليوم فرادى وزرافات.

كل هذه بشائر ودلائل على أن هناك بعثاً قائماً اليوم. وإنه لتعترض طريقه

= « تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول: يا عبد الله، هذا يهودى ورائى فاقتله» .

ونحوه من حديث أبى هريرة مرفوعاً: أخرجه الشيخان أيضاً، انظر صحيح البخارى (رقم ٢٩٢٦) كتاب الجهاد، باب قتال اليهود، وصحيح مسلم (رقم٢٩٢٢) كتاب الفتن.

معوقات شتى. وإن هناك لجولة قادمة منتصرة للإسلام بإذن الله، ولكنها لا تأتى عفواً، إن السّماء لا تُمطر ذهباً ولا فضّة، ولا تمطر نصراً كـذلك، إلا بشـرط ﴿ إن تنصُروا الـلهَ ينصُرْكُم ويُثبّتْ أقـدَامكُم ﴾ [سورة محمد الآية:٧]. لقد اقتضت مشيئة الله أن يكون قدره سارياً في الأرض من خلال عمل الإنسان ﴿ ظهرَ الفسادُ في البَرِّ والبحرِ بما كسبتْ أيدي الناسِ ﴾ [سورة الروم الآية: ٤١] .

نعم... ظهور الفساد قدر من عند الله، ولكنه جاء من خلال عمل البشر من جانب آخر: ﴿ إنَّ اللـهَ لا يُغـيّرُ مَا بقَوْمٍ حَتَّى يُغـيّروا مَا بأنـفُسِهم ﴾ [سورة الرعد الآية:١١]. هل يعجز الله سبحانه وتعالى عن التغيير وهو الذى لا يعجزه شئ فى السموات والأرض؟! حاشا الله أن يعجزه شيء. ولكن هكذا اقتضت مشيئة الله، أنه لا يغير حتى يُغير الناس ما بأنفسهم.

نعم... إن هناك نصراً قادماً للإسلام، ولكن هذا يقتضينا أن نعمل. أن نطبق هذا المنهج التربوى الربانى في واقع حياتنا، حتى لا يكون شعارات. حتى لا يقول الشباب من المسلمين ومن غير المسلمين هذه مثاليات غير قابلة للتطبيق. كلا... إنها قابلة للتطبيق، لأنها طبقت مرة على يد بشر، ونحن بشر مثلهم لا ننقص فى بشريتنا شيئاً عنهم، ولا يزيدون هم فى البشرية شيئاً عنا. فإذا عزمنا فعندئذ نطبق هذا المنهج تطبيقاً واقعياً، ونعود إلى مثل الجيل الأول الذى تحقق فيه بالكامل وصف الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة: ﴿ كُنتُم خير أمّةٍ أخرجَت للنّاسِ تأمُرُونَ بالمعرُوفِ وتَنْهونَ عَنِ المنكَرِ وتؤمنونَ باللهِ ﴾ [سورة آل عمران الآية: ١١٠] .

والله يوفقنا وإياكم إلى عمل الخير، والاهتداء بهُداه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الإسلام إلى البشرية الحائرة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

إخوانى وأبنائى السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

محاضرتى هذه الليلة عن رسالة الإسلام إلى البشرية الحائرة، والإسلام رسالة إلى البشرية كلها، منذ بعث الرسول ﷺ إلى أن تقوم الساعة.

ولقد كانت البشرية يوم نزلت هذه الرسالة فى أشد الحاجة إليها. كانت الجاهلية تملأ وجه الأرض كلها، وما كانت بقعة فى الأرض كلها إلا والجاهلية هى المسيطرة عليها.

ثم بعث الله رسوله ﷺ وأنزل كتابه المكرم فانتشر النور حيث كانت الظلمات. انتشر بيد هذه الأمة التى أعدها خالقها على عينه سبحانه ورعاها رسوله عليه الصلاة والسلام لتكون خير أمة أخرجت للناس، لتنشر النور والهدى، وتُري الناس العدل الرباني كما لم يروه أبداً فى التاريخ!

ثم دار الزمن دورته، وأخذت هذه الأمة مركزها الذى أهلها الله له وأهلها له عملها بكتاب الله وسنة رسوله وعملها بالمنهج الرباني.

دار الزمن دورته وهذه الأمة راكزة فى الأرض تنشر النور وتنشر الثقافة والعلم وتنشر الحضارة وتُري الناس كيف يكون النموذج البشرى السوى الذى خلقه

الله في أحسن تقويم - ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [سورة التين الآية: ٤] - ثم تُريه الفارق بين الإنسان فى أحسن تقويم وبينه حين ينتكس فيصبح أسفل سافلين كما تصنع الجاهلية.

أقول: دار الزمن دورته، وبدأ المسلمون يتخلون عن مكانهم ومكانتهم؛ إذ يتخلون عن منهج ربهم، وينحسر دورهم فى الأرض، ويتضاءل، فتعود الجاهلية لتنتشر في الأرض. إنه ليس هناك حالة تكون فيها البشرية فى تاريخها الطويل إلا إحدى حالتين:

إما أن تكون تحت النور الرباني، أو تكون فى ظلمات الجاهلية.

ولا يمكن - أبداً - أن تكون هناك حالة ثالثة.

وحين كان المسلمون يقومون بدورهم فى الأرض، حين كانوا ينفذون وصايا ربهم، حين كانوا يحققون معنى الأمة الراشدة، الأمة القائدة، كان النور هو المسيطر على وجه الأرض، وكان الذين يستظلون بظل الإسلام - ولو لم يدخلوا فى الإسلام، من يهود ونصارى ومجوس- كانو كلهم يستظلون بظل الله، ويتمتعون بالعدل الإلهي الذى نزل للبشر جميعاً، وكلَّفَ المسلمين أن يقيموه فى الأرض، حتى بين الذين لم يدخلوا فى دين الله: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٦]، نعم، لا إكراه فى العقيدة... لا يكره إنسان على اعتناق عقيدة الإسلام.

ولكن لابد أن يقوم الميزان الرباني فى الأرض، لابد أن تحكم الأرض كلها بشريعة الله، فكيف يكون ذلك؟

يخرج المسلمون للجهاد، ويخضعون الأرض كلها لحكم الله، ثم لا يفرضون العقيدة على أحد، من شاء أن يدخل فى الإيمان فليدخل، ومن شاء أن يبقى

على دينه فليبق، ولكن حكم الله يظل قائماً فى الأرض.

هكذا كان الحال يوم كانت هذه الأمة تقوم بدورها التاريخى، ثم انحسرت هذه الأمة بتخليها عن منهج الله – وقد حدث هذا التخلى تدريجياً بطبيعة الحال–، وعادت الجاهلية التى كانت قد انحسرت، عادت فنمت مرة أخرى. إنه لا يمكن أن يكون هناك فراغ في الأرض، هناك قوة دائماً تسيطر، وتجرى مقاليد الأمور فى الأرض بمقتضى سنة الله، وحين كانت القوة الإسلامية هى الباسطة قوتها فى الأرض كانت الجاهلية منحسرة، فلما انحسرت دولة الإسلام وتخلت الأمة الإسلامية عن موقعها عادت الجاهلية فنمت وغطت الرقعة مرة أخرى، وظلت الجاهلية تنمو حتى صرنا إلى هذه الجاهلية التى نسميها جاهلية القرن العشرين....

أعتى جاهلية فى التاريخ... وأخبث جاهلية فى التاريخ... الجاهلية التى استخدمت كل ثمار العلم وكل ثمار التقدم المادى والحضارى لتفتن الناس عن دينهم...

هذه الجاهلية هى التى تملأ اليوم وجه الأرض وتشقى الناس معها وتثير الخبل فى حياتهم. وقد وصلت البشرية إلى الدرك الأسفل من الخبث وصارت فى حاجة اليوم – مرة أخرى – إلى المنقذ الذى أنقذها أول مرة. ولن يكون هذا المنقذ فى أى وقت من الأوقات إلا هذا الدين الذى أنزله الله إلى البشرية كلها، ليهديها طريق الصواب، هو لا غيره الذى يملك أن ينقذ البشرية من حيرتها.. من ضياعها.. من قلقها.. من تمزقها.. من الحيرة والارتباك والقلق والاضطراب الذى يعيش فيه الناس فى القرن العشرين. ولكن نحتاج أن نستعرض بقدر ما يسمح الوقت به كيف وصلت هذه الجاهلية إلى ما هى عليه

اليوم لنعلم كم هو ضخم واجب المسلمين في الأرض... ولنعلم كيف يكون الدور الذى يلعبه الإسلام فى الأرض...

* كيف فسدت البشرية ؟
* كيف مسخت فطرتها ؟
* كيف زالت عقائدها وزالت أخلاقها؟
* كيف تفسخت فرداً وجماعة، وأسرة، بنات وأولاداً، صغاراً وكباراً؟
* كيف وصلت إلى هذا المسخ الممسوخ الذى نراه على وجه الأرض؟

لابد لنا أن نعلم ذلك لأمرين :

١- لنعلم ما هو دورنا على وجه التحديد؟ كيف ندخل لعلاج هذه الأمراض التى أصيبت بها البشرية؟ وكيف نعالجها؟ هذا أمر.

٢- وأمر آخر لا يقل خطورة وأهمية عنه: ينبغى أن نعرف كيف فسدت الحياة فى أوربا فى هذه الجاهلية التى ندعوها جاهلية القرن العشرين؟ لأن الدور ذاته الذى لعب فى أوربا يُلعب معنا نحن الآن، يريدون أن يكرروا الدرس الذى أفسدوا به أوربا والذى دمروا به إنسانية الإنسان فى أوربا، يريدون أن يعيدوه معنا مرة أخرى، فينبغى أن نعرف على قدر ما يسمح الوقت به كيف أفسدت أوربا؟ كيف أتلفت الفطرة البشرية ذاتها؟ لا العقيدة فقط، ولا الأخلاق فقط، ولكن الفطرة البشرية ذاتها كيف دُمرت، لأن هذا المرض وافد إلينا، يُرسل إلينا فى عقر دارنا، فينبغى أن نكون على علم به لنستطيع أن نحذره فى حياتنا، ولنستطيع أيضاً حين ننجو من هذا الشر أن نقدم الخير للبشرية، فإنه إن دهمنا هذا الشر... إن لم نتحصن ضده وإن لم نعرف خبث هذا الكيد ودرجة شراسته وتوغله فى النفس البشرية... فإنه سيصيبنا... وإذاً تضيع فرصة الهدى لا علينا

فقط ولكن على البشرية كلها، ولا نقول: إننا نحن قدر الله نستغفر الله، والله يجرى قدره بالطريقة التى يراها سبحانه، ولكن نرجو أن نكون نحن الذين يجيء على أيدينا النور، ويجيء على أيدينا العلاج، وإلا فإن الله قادر على أن يذهبنا كما قال سبحانه فى كتابه العزيز: ﴿ **إن يَشأ يُذهِبكُم ويَأتِ بِخَلْقٍ جَديدٍ** ﴾ [سورة إبراهيم آية:١٩] لا نريد أن نكون نحن الذاهبين، بل نريد أن نكون نحن الذين يكتب الله على أيدينا الهدى.

الهدى لأنفسنا ثم للبشرية كلها، ولن نستطيع أن نقوم بدورنا المطلوب منا لهذه البشرية التي تتلمس النور وتتلمس المنقذ حتى نكون قد نجونا أولاً من السُّم الذي يرسلونه إلينا ثم وقفنا صامدين بديننا... بمنهجنا الرباني... لنعطيه للبشرية، من أجل ذلك يهمنا أن نعرف: كيف فسدت أوربا؟

إنها لم تفسد دفعة واحدة بطبيعة الحال، ولم تفسد من تلقاء ذاتها فحسب، إنما وضعت فيها سموم لتفسدها ولتدمر بشريتها. حقيقة أن الكيان الأوروبي كان من السهل النفاذ فيه وتفتيته بسبب الأمراض التى كانت قائمة فيه والانحرافات التى كان عليها الناس.

وقد يكون سريان المرض فينا أصعب، لأن بنياننا أقوى من بنيان أوربا حينما بدأ إفسادها، ولكن فلنحذر الأمن الخادع، أن نقول لأنفسنا: نحن بخير ولن ينالنا شر! فلنحذر ذلك، ولنراجع أنفسنا: هل نحن حقيقة على الصراط؟ إن كنا على الصراط حقاً فلن ينالنا هذا الكيد بضرٍّ لأن الله وعَدَنَا إذا نحن استقمنا على الطريق فلن يضرنا كيدُهم شيئاً، ووَعْدُ الله لا يتخلف، ولكن إذا نحن مِلْنا هنا أو هناك فإنه يصيبنا ما أصاب القوم فى أوربا، فلنحذر إذاً ذلك الأمن الخادع، ولنراجع أنفسنا يوماً بيوم وساعة بساعة لنعلم هل نحن

مستقيمون حقاً على أمر الله أم نحن نتصور ذلك أو نتمنى أن نكونهُ ﴿ لَيسَ بِأَمَانِيِّكُم وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ ﴾ [سورة النساء آية:١٢٣] «لَيْسَ الإيمانُ بالتَّمنِّي وَلاَ بالتَّحلِّي ولَكن ما وَقَرَ في القَلْبِ وصَدَّقَهُ العَمل»[1].

من أجل ذلك كله يهمنا أن نعرف - ولو بعرض سريع - كيف أُفسدت أوربا؟ لقد كانت أوربا ذات يوم على قدر من عقيدة دينية وروح دينية

---

(١) **صحيح من قول الحسن البصري.** أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٦٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه [(٢٢/١١)، (٥٠٤/١٣)] وفي الإيمان (رقم٩٣)، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (٢٣٠/٢، ٢٣٤)، وابن بطة في الإبانة (رقم ١٠٩٣، ١٠٩٤)، والخطيب في اقتضاء العلم العمل (رقم ٥٦)، من طرق عن الحسن البصرى -رحمه الله- من قوله.

وثبت أيضاً من قول عبيد بن عمير -رحمه الله-، أخرجه الإمام أحمد في الإيمان، وعبد الله بن أحمد في السنة (رقم٦٣٩)، ومن طريقه أخرجه ابن بطة في الإبانة (رقم١٠٩٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٢/٣-٢٧٣)، وغيرهم .

وقد ورد الخبر مرفوعاً ولا يصح: فقد أخرجه ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد والديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس عن النبى ﷺ، وسنده واه جداً، بل قال العلامة الألباني في الضعيفة (١٠٩٨): « موضوع ». ففى سنده: يوسف بن عطية الصفار الأنصاري وهو متروك منكر الحديث، وكذا عبد السلام بن صالح أبو الصلت الهروى، قال ابن عدي: «متهم» .

وقد ورد أيضاً من حديث أبى هريرة مرفوعاً، ولا يصح أيضاً، وقد أخرجه ابن عدي في الكامل (٢٢٩٠/٦)، واللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » (رقم١٥٦١).

وانظر تخريجه في «تعليم الصلاة» (ص٢٠/رقم١٥) طبعة مكتبة السنة بالقاهرة.

وأخلاقيات دينية - ولكن ذلك كله كان على قاعدة منحرفة - فأما العقيدة فقد شُوِّهَتْ منذ مولدها، إذ لم يقل عيسى عليه السلام - وهو نبى الله المرسل - ﴿ اتَّخذُوني وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ ﴾ [سورة المائدة آية:١١٦]، ولكنهم فعلوا ذلك. ولم يقل: أنا ابن الله. إنما ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ ﴾ [سورة مريم: آية٣١]، ولكنهم كذبوا عليه وقالوا: هو ابن الله ..

فبدأ الفساد من أول لحظة فى العقيدة ذاتها. ثم كان هناك فساد آخر في نفس الوقت: فدين الله المنزل هو دائماً عقيدة وشريعة، عقيدة فى القلب تقول إن الله واحد، وتدعو الناس لعبادة الله الواحد، وشريعة تنظم حياة الناس فى الأرض بمقتضى الخضوع لله.

كل دين مُنَزّل كان عقيدة وشريعة. أما أوروبا فقد أخذت العقيدة وحدها وتركت الشريعة، فكان هناك انحراف مزدوج، انحراف العقيدة في ذاتها إذ شوهت وحرفت، ثم كان الانحراف الآخر، انحراف فصل العقيدة عن الشريعة، فقد أخذوا الشريعة فقط في الأمور التى يسمونها الأحوال الشخصية (الزواج، الطلاق، الميراث، العتق) أما بقية أمور الحياة السياسية والاقتصادية والجنائية فقد اتبعوا فيها القانون الروماني ولم يتبعوا الشريعة. وقالوا: (ما لقيصر لقيصر وما لله لله). وفسّروها بأن الدين لله والأرض يحكمها قيصر... تحكمها الشريعة الرومانية.. ومن هنا كان الفساد قديماً في التربية الأوربية، وكان من السهل على الشياطين الذين كانوا متربصين للإفساد أن يتغلغلوا في هذا الكيان المنحرف ويبثوا سمومهم فيه .

ثم جاء انحراف آخر.. نُعَدِّد الانحرافات لكي نعلم كيف نفذ الشر بهذه السرعة فى البنية الأوربية، ثم نرى كيف يديرون الكأس علينا، وكيف

يستخدمون الدرس الذي أتقنوه في أوربا أول مرة، وكيف يطبقونه علينا في المرة الثانية.

جاء انحراف آخر حينما وقفت الكنيسة ضد العلم، تهدد العلماء بالتقتيل والتعذيب في الأفران وبوسائل التعذيب المختلفة لأنهم قالوا بأن الأرض كروية وقالوا بأن الأرض ليست مركز الكون. كان هذا علماً نافعاً أخذوه من مدارس المسلمين، ومن هنا وقفت الكنيسة تحارب هذا العلم.

يقولون في مراجع أوربا: إن الكنيسة وقفت تحارب هذا العلم لأنها كانت حريصة على الخرافة، ولأن سلطانها مقترن بالخرافة، وإذا ذهبت الخرافة من قلوب الناس ورؤوسهم فسيضيع نفوذ الكنيسة. وهذا حق، ولكنه ليس الحق كله.

بقية الحق أن الكنيسة وقفت ضد هذا العلم لأنه آت من مصادر إسلامية، وقد خشيت الكنيسة من انتشار الإسلام في أوربا مع المبعوثين الأوربيين الذى يتعلمون فى مدارس المسلمين في الأندلس وشمال إفريقيا وصقلية وجنوب إيطاليا، فوقفت تحارب هذا العلم.

المهم عندنا أنه بدأت الفُرقة بين الدين والعلم. فالدين فى طريق والعلم فى طريق، ثم مرت القرون وجاء دَارْون بنظرية التطور. وما نريد أن نناقش نظرية التطور بخطئها وصوابها، إن هذا لا يعنينا، إنما الذى يهمنا هو إيحاء هذه النظرية وكيف استغلها الشياطين لإفساد الدين والأخلاق والتقاليد، قال دارون ما قال: إن الكائنات الحية تطورت من خلية وحيدة إلى الكائن ذى الخلايا المتعددة، إلى النبات، إلى النبات الذى يشبه الحيوان، إلى الحيوان الذى يشبه النبات، إلى الحيوان اللافقارى، إلى الحيوان الفقاري، ثم الفقاريات العليا

(الثدييات)، ثم الثدييات العليا التى هى القردة الأربعة الكبرى (الجيبون، إنسان الغاب، الغوريلا، الشمبانزي) ومن هؤلاء تطور الإنسان. وهنالك حلقة مفقودة بين القردة والإنسان.

بصرف النظر عن هذه النظرية التى لن نناقشها ولن ندخل فى تفصيلاتها، وإن كنت أطمئنكم بأن الدّارْونية الحديثة نفسها تكذب الدارونية القديمة، أى أن علماءهم أنفسهم الذين يسمون أنفسهم نيودارونزم أو نيودارونست الذين يُكذِّبون نظرية دارون، لا نريد أن ندخل في تفاصيل النظرية، لكننا نريد أن نتحدث عن إيحاء هذه النظرية، فقد استغله الشياطين لتدمير أوربا، إذ دخل اليهود بعبقريتهم الشريرة - إنهم عباقرة، نعم... لكن فى الشر - دخلوا بعبقريتهم الشريرة هذه ليفسدوا الحياة الأوربية، أخذوا نظرية علمية خاطئة أو صائبة أو قل فرض علمى لكن اليهود نقلوه من المعمل إلى الحياة الخارجية. مددوا النظرية وبسطوها، أى أمسك كل منهم بقطعة يجرها إليه ليغشوا بها الحياة البشرية كلها، وكان على رأس هؤلاء ثلاثة من اليهود انتشرت أسماؤهم في الأرض، الاثنان الأولان على الأقل مشهوران: مَارِكس وفرويد، الثالث هو دوركهايم،هؤلاء الثلاثة اليهود أخذوا النظرية الدارونية كل فى جانب ووجهوها لإفساد البشرية مبتدئين بأوربا .

أما ماركس فالنظرية الدارونية عنده يمكن اختصارها فى كلمتين: حيوانية الإنسان وماديته، يعنى أن الإنسان من أصل حيواني ثم إن البَيْئة المادية هى التى تؤثر فيه تأثيراً حتمياً، لا يستطيع الكائن الحى أن يُغير طريقه أو يتصرف فيه. هذه هى خلاصة الدارونية فى نقطتين.

جاء ماركس : فابتدع نظرية اقتصادية مستمدة من فكرة حيوانية الإنسان

وجبرية التطور المادي، ولا تهمنا نظرية ماركس أيضاً ولا يتسع الوقت للحديث التفصيلى عنها، ولكنى أقول إن ماركس صنع نظرية اقتصادية، وفرويد صنع نظرية نفسية،ودوركهايم صنع نظرية اجتماعية مستمدة من الداروينية.

أما ماركس: فقد سار مع التفسير المادى للتاريخ، يفسر الحياة البشرية على أساس حيوانية الإنسان من ناحية وعلى أساس التطور المادى أو الاقتصادى، ما تهمنا التفاصيل، أقف فقط عند نقطة واحدة لأنكم سمعتموها وتسمعونها فى إذاعات مختلفة وفى صحافة تقول أو تزعم أنها صحافة مسلمة وإذاعة مسلمة وتليفزيون مسلم وهو يردد ما يردده أولئك الذين فسدوا أو الذين أفسدوا.

يقول ماركس فى عرضه للحياة البشرية: «إن الدين ظاهرة قوية فى المجتمع الزراعى أو المجتمع البدوى ولكنه يضعف فى المجتمع الصناعى تلقائيا »! هكذا يقول. لماذا؟

ليس الدين فطرة. ليس حقيقة ربانية. إنه لا إله - نستغفر الله- وليس هناك وحى ولا أنبياء مرسلون، وإنما في الحياة يلقى الفلاح الحبة فى الأرض ثم يضطر أن يكل أمره لقوة غيبية لأنه لا يستطيع أن يخرج الثمرة بنفسه، ليس هو الذى يتحكم فى النبات، هو يبذر فى الأرض وينتظر القوى الغيبية لتخرجها له من الأرض، ولا يستطيع أن يضمن لها النماء، ولا يستطيع أن يمنع العواصف والأعاصير والآفات، فهو إذاً مضطر أن يَكِل أمره إلى قوة غيبية. ومن أجل ذلك يكون الدين قوياً فى المجتمع الزراعيّ. ثم ينتقل النّاس إلى المجتمع الصناعي، وهو مجتمع إنتاجه متطور، فالعامل هو الذى يقدم المادة الخام للآلة، وهو الذى يدير الآلة بيده، وهو الذى يتلقى الإنتاج، وهو الذى يشكله ويصوغه. إذاً فليس فى حاجة إلى القوة الغيبية!

كذلك زعموا قضية أخرى أو أسطورة أخرى أو مغالطة أخرى ... فهذه كلها مغالطات غير علمية... والعجيب أن هذه النظرية المملوءة بالمغالطات والأساطير تصبح نظرية علمية وتدرس الآن فى جميع جامعات الأرض. كيف هذا؟ كيف استغفل البشر إلى حد أن يأخذوا الانحرافات العقلية والأباطيل ولا يرون ما فيها من بطلان ويأخذونها على أنها نظرية علمية؟

يقول: « إنه فى المجتمع الزراعى تكون للعفة الجنسية أهمية بالغة » لماذا؟

لا لأن للعفة قيمة ذاتية، ولا لأن الله أمر بها، ولا لأنه هكذا ينبغى أن يكون الأمر لتستقيم حياة البشر على الأرض... كلا... إنما لأنه فى المجتمع الزراعى يكون الرجل هو المنتج والمرأة لا تنتج، بمعنى: لا تتكسب، الرجل هو الذى يتكسب، والذى يتكسب أو الذى يملك هو الذى يحكم أو يتحكم، ومن ثم يتحكم الرجل فى المرأة لأنه هو المتكسب، فيفرض عليها بأنانيته أن تكون له وحده لا يشاركه فيها أحد، ومن هنا تكون للعفة قيمة كبيرة فى المجتمع الزراعى!!!

ثم ننتقل إلى المجتمع الصناعي. خرجت المرأة - سنرى كيف أُخْرِجَت، فهى لم تخرج من تلقاء نفسها ولكنها أُخْرِجَتْ - خرجت المرأة، استقلت اقتصادياً لأنها تعمل.. لم يعد الرجل هو المتكسب وحده، ومن ثم لم يعد هو المسيطر وحده، لم تعد له سيطرة على المرأة، لم يعد له أن يقول بأنانيته للمرأة كونى لى وحدى ولا تكوني للآخرين، فصارت المرأة حرة تتصرف فى نفسها كيف شاءت، ففقدت العفةُ قيمتَها التى كانت لها فى المجتمع الزراعى، وهذا تطور، تطور حتمى لا يستطيع أحد أن يقف أمامه!!!

هذا هو الإيحاء الخبيث الذى وضعه ماركس! ونحن لا نناقش هنا تفصيلات

النظرية، إنما ركزتُ على هاتين النقطتين لأنكم تسمعونهما فى إذاعات كثيرة. وقد لا يقال هذا الكلام نصاً، ولكن يقال مثله وشبيهه، يقولون:

التقاليد البالية... تقاليد المجتمع الزراعى المتأخر... نحن صرنا فى مجتمع صناعى متقدم فصارت لنا تقاليد جديدة ... تحررت المرأة ... ما عادت ترضى بالقيود التى كان يفرضها عليها الرجل فى المجتمع الزراعى... هى ذات الأسطوانة وذات الشريط الذى قيل هناك... سجل هناك ... ويدار مرة أخرى فى الشرق الإسلامى .

* * *

فرويد: اليهودى الثاني:

ابتدع نظرية أسطورية أكثر من أسطورية الماركسية، مع ذلك: فالعجب أنها - وهى قائمة على أساطير، يعترف هو نفسه أنها أساطير - تُدرس فى كل جامعات الأرض على أنها نظريات علمية! واليوم بطل عمل فرويد فى أوروبا وأمريكا لأنه استنفذ أغراضه، وما عادت له مهمة يؤديها، ولكن فى ذات الوقت الذى بطل فيه فرويد وسحره لأن الفساد تجاوز المدى الذى بشر به فإنه حين يُرسَلُ مبعوث من البلاد الإسلامية إلى أمريكا أو أوروبا يدرس علم النفس يُدرَّس له فرويد خصيصاً !!!

جاء فرويد بمجموعة أخرى من الأساطير، صور بها الحياة كلها على أنها نابعة من الجنس!!! قال: « إن الطاقة الحيوية البشرية هى طاقة جنسية أصلاً» ! سبحان الله! طاقة الحيوان الذى هو فى رأى دارون وفى حقيقة الأمر أدنى من الإنسان ليست جنسية بحتة، فلماذا يراد للإنسان الأعلى فى سلم التطور - كما يقول دارون الذى أخذ منه فرويد - أن تكون طاقته كلها جنسية ؟!

الحيوان له طاقة جنسية وطاقة عضلية والطاقة التى يأكل بها ويشرب، طاقات متميزة، لماذا تصبح فى الإنسان كلها طاقة جنسية؟! أسطورة.. ما دليلها العلمى؟ هكذا قال فرويد: الإنسان طاقة جنسية.. حركات الإنسان كلها نابعة من أصل جنسى.. الطفل يولد بطاقة جنسية! يرضع بلذة جنسية! ويتبول ويتبرز بلذة جنسية! ويمص إبهامه بلذة جنسية! ويحرك أعضاءه بلذة جنسية!!!... هذه الأساطير مسجلة فى كتب فرويد ومع ذلك تدرس على أنها :

نظريات علمية! ويطالب الرجل بالدليل..

قال فرويد: إن الطفل الذكر يعشق أمه عشقاً جنسياً!

أين الدليل على هذه الأسطورة؟

ثم يجد أباه حائلاً بينه وبين الاستيلاء على الأم فيكبت فى لاشعوره عشقه لأمه فتتكون عقدة أوديب! وهى عقدة جنسية! ومن هذه العقدة ينشأ الدين والضمير والأخلاق!!!

لا تسألونى كيف!

ولا تسألوه هو كيف!

لأنها أساطير!!

والعجب أن هذه الأساطير تنشر فى الأرض على أنها نظرية علمية! وتدرس فى كل معاهد التربية بما فى ذلك العالم الإسلامى! ولا بأس أن تدرس النظرية ولكن تُغَيَّر روح التقديس التى تُدَرَّسُ بها الآن، كأنها شيء لا يجوز مناقشته.

وحين أصدرت كتابى الأول ١٩٥١م بعنوان « الإنسان بين المادية والإسلام» وخصصت فيه فصلاً لفرويد لأناقش هذه الأساطير جاء إليَّ واحد - مع الأسف من الذين يظنون أنهم ذوو اتجاه إسلامى- يقول: «كيف: أنت تناقش فرويد؟»

يقول فرويد: « إن الدين والأخلاق والتقاليد نابعة من أصل جنسى »!.

ماذا يقصد؟ الجنس فى أوروبا فى ظل المسيحية كان شيئا مستقذراً لأنهم كانوا يحسونه هكذا بتأثير الرهبانية ﴿ وَرَهْبَانِيَةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الحديد آية:٢٧] وهذه الرهبانية تستقذر الجنس فى ذاته، فالجنس فى حس الأوربى مستقذر، فيجيء فرويد فيقول: « إن الدين والأخلاق نابعة من أصل جنسى »! فيزيل بذلك قداسة الدين. فكأنه يقول: أنتم تظنون أن الدين شيء سماوى منزل ومشاعر شفافة رفيعة عالية، لا ... الدين نابع من الجنس. فهنا تزول قداسة الدين، وهذا هو الغرض الخبيث من وراء هـذا الكلام. ثم يقـول: أن الكيان البشرى لا يمكن أن يتحقق تحققاً كاملا إلا بإطلاق الطاقة الحيوية التى هى حيثية فى زعمه، أى أنه لا يتحقق للإنسان كيانه إلا بأن ينقلب الناس كالحيوانات، يمارسون الجنس بغير قيود، وإن أى قيد يصنع كبتاً واضطرابات عصبية ونفسية، وهذه النقطة بالذات هى التى نشرت فى كل الأرض.

حدثتكم فى محاضرتى السابقة بأن فرويد نفسه فى تعريفه العلمى للكبت قال كلاماً غير ذلك، ولكنه قالها مرة واحدة فى كتاب واحد، وله أكثر من ثلاثين كتاباً ظل يبث فيها الفكرة الأخرى بالإيحاء .

وهذا هو الذى نشره اليهود فى الأرض، فأوحوا إلى الشباب فى كل مكان أنه إياك والامتناع عن إجابة دافع الجنس وإلا فستصاب بالكبت، وستصاب بالاضطرابات العصبية والنفسية، هذا الإيحاء الذى نشر فى كل الأرض وكان مقصوداً به إفساد أخلاق الشباب.

وقد رأيتم كيف فعلت أوربا، وربما كانت هذه البلاد هنا بريئة حتى الآن

من الإعلانات العارية، ولكن في كل مكان تقريباً يوجد إعلان عن الكوكاكولا تصحبه فتارة عارية متمددة في جلسة مغرية! ما علاقة الكوكاكولا بالفتاة؟! إنه تطبيق للفرويدية في الإعلان. حينما يعرضون ملابس السيدات على جسم فتاة عارية فهذا خروج على الدين وخروج على الأخلاق وخروج على كرامة المرأة، كما تيقظت أخيراً المرأة الأمريكية في العام الماضي إذ قامت مظاهرات نسائية تطالب بمنع « المانيكان » الحية « والمانيكان » الصورة لأن هذا ابتذال لجسم المرأة. أحست المرأة أخيراً بأن ذلك ابتذال للمرأة وامتهان لكرامتها، ولكن حينما ينشر إعلان عن الملابس الداخلية للسيدات على جسد عار فقد يكون هناك شيء من المنطق رغم مخالفته للدين والأخلاق. لكن الكوكاكولا ما علاقتها بالجسد العارى! إنه فرويد في الإعلان.

والصحافة العارية والقصة العارية... القصصي « د. هـ. لورنس » في إنكلترا طبق الفرويدية في الفن وأصدر قصته « عشق ليدي تشاترلي » التى منعت عشرين سنة أو أكثر ثم أباحتها إنكلترا حينما انحلت وأباحت الشذوذ الجنسي وأباحت كل شئ فأباحت هذه القصة الداعرة وهى تطبيق كامل للفرويدية فى القصة.

ولن نناقش هذه الأساطير – وما تستحق المناقشة –، ولكن نرى أن الهدف الخبيث الذى كان مستتراً وراء هذه النظرية العلمية المزيفة هو إفساد أخلاق الشباب بالإيحاء الدائم إليهم أنهم إن امتنعوا عن ممارسة الجنس فسيصيبهم الكبت والعقد النفسية والعقد العصبية .

هل أقول لكم كلمة أخرى عن فرويد فى أساطيره التى يقولها ويبنى عليها نظريات هو نفسه اعترف أنها أسطورة ثم بنى عليها نظرية، يقول: «إن البشرية

الأولى ذات يوم شهدت جريمة مروعة »!

إن القرآن يقول ذلك والكتب السماوية تقول ذلك: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ** ﴾ [سورة المائدة الآية: ٢٧] الآية.. أحدهما قتل الآخر.

أما عند فرويد فليست كذلك!

والعلم عند فرويد!!!

ففى يوم من الأيام وقعت هذه الجريمة، قتل الأبناء أباهم ليحصلوا على الأم جنسياً!

. هذه هى الجريمة! وليست قتل الأخ لأخيه!

ثم بعد أن قتلوا أباهم وجدوا أنه لن يستطيع واحد منهم أن يحصل على الأم بمفرده، وأنه سيثور بينهم صراع فيقتل بعضهم بعضاً فحرموا الأم على أنفسهم! ومن ذلك نشأ أول تحريم جنسى فى التاريخ تحريم زواج الأم.!!!

من أين جاء بهذه القصة؟!!!

إنه يروى عن دارون أنه قال فى عالم البقر تتصارع الثيران الشابة مع أبيها الثور الأكبر لتحصل على الأم وتظل تصارعه حتى تقتله ثم يثور بينها هى نزاع على الأم أيضاً حتى يفوز أشدهم وأكثرهم بطشاً بالأم فيتنحى الآخرون!

وما أدرى إن كان هذا يحدث حقيقة فى عالم البقر أم لا يحدث!! ولكن نسلم جدلاً أنه يحدث فى عالم البقر! كيف تأتى لفرويد أن ينقله من عالم البقر إلى عالم البشر؟! على أى أساس؟! هذه الأسطورة التى يقول هو: إننى لم أشهدها ولكنى أتخيل حدوثها، نقلها من خيال إلى واقع بنى عليها نظريات، نظريات تدرس فى معاهد التربية وعلم النفس!!!

اليهودى الثالث « دوركهايم » :

صنع نظرية اجتماعية، ما تهمنا تفاصيلها، يقول: هناك شئ اسمه العقل الجمعى هو الذى يسيطر على البشر، وهذا العقل الجمعى ما تستطيع أن تمسكه ولا تحدده ولا تقول أى شئ هو! إنه شئ يتحكم فى الناس من خارج أنفسهم، ومن خارج إطارهم، وليس هو مجموع عقول الأفراد، وليس نابعاً من أنفسهم، وليس هو الاستجابة لفطرتهم!

ماذا هو إذاً ؟! ما ندرى!

هذا العقل الجمعى هو الذى يتحكم فى حياة البشر! ثم إنه ليس عاقلا ولا ثابتاً ولا منطقياً! وهو يأمر الناس فيطيعونه! يقول لهم ليكن زواج فيكون زواج! يقول لهم لا زواج فيلغى الزواج، وما تستطيع أن تناقشه لأنه غير عاقل وغير منطقى!!!

ثم إنه غير ثابت! لا تقل له أنت قلت بالأمس أيها العقل الجمعى كذا لأنه هو غير ثابت!

هكذا النظرية كلها أساطير!!!

وشر البلية ما يُضحك!!!

إن نظرية دوركايم هى التى تدرس فى جميع أقسام الاجتماع فى كليات الآداب الإسلامية، ولا يقال فى كل حالة إن هذا دوركايم، بعض الأساتذة يقولون، ولكن هناك أساتذة أبرع من ذلك! يترجمون النظرية ويضعون أسماءهم هم عليها كأنما هى من عندياتهم يتقربون بها إلى الله!! يقول دوركايم - فى أساطيره - كان يظن أن الدين والزواج والأسرة هى أشياء من الفطرة ولكن ليس هناك ما يثبت ذلك!

أرأيتم.. محا الدين والأخلاق والزواج والأسرة بنصف سطر من غير مناقشة علمية!

هل يكفى أنِ يجيءَ إنسان فيقول لى ليس هناك ما يثبت ذلك ليحطم كل مقدسات البشرية بكلمة ولا يناقش وتدرس نظرياته على أنها نظريات علمية؟!

طبعاً ليست النظريات الثلاثة - نظرية ماركس ونظرية فرويد ونظرية دوركايم - كلها أساطير وإلا ما كانت تعيش، فيها وقائع وحقائق ولا شك، لكنها حقائق جزئية تفصيلية. أما القاعدة التى تقوم عليها فهى باطلة من أساسها، ولا يمنع هذا من وجود تفصيلات صحيحة في أثناء الطريق.

« الدين والزواج والأسرة أشياء كانت تظن من الفطرة ولكن ليس هناك ما يثبت ذلك » هكذا يقول! ثم يقول إن النظر إلى الأخلاق على أنها قيم قائمة بذاتها هو نظر غير ذى موضوع، غير معقول أن ننظر للأخلاق على أنها قيم قائمة بذاتها، يعنى كيف ننظر لها على أنها أشياء قائمة بذاتها بينما هى من صنع العقل الجمعى.

العقل الجمعى المجنون غير العاقل المتقلب الذى يحل اليوم ما حرمه بالأمس وهو مستعد أن يحرم غداً ما يحله اليوم!

ما الإيحاء المطلوب من نظرية دوركايم؟ المقصود هو تحطيم المقدسات الثابتة فى حياة البشرية...

الدين.. الأخلاق.. التقاليد.. الزواج.. الأسرة..كلها قيم ليست ثابتة ومن العبث التمسك بها على أنها قيم قائمة بذاتها ما دام الذى يصنعها هو العقل الجمعى المجنون المتقلب الذى لا يثبت على شيء !

ولست أصدق أن ماركس كان يصدق نفسه!

ولا أن فرويد أو دوركهايم كان يصدق نفسه!

إنما هذه نظريات موجهة.. لإفساد الجماهير .

وهذا هو التشكيل الذى شكل به العقل الأوربى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وما مضى من القرن العشرين. هذه الانحرافات الفكرية التى تأخذ ثوباً علمياً هى فكر أوربا. ومع ذلك فإن الأمر لم يقتصر على إفساد الفكر؛ ولكنه امتد إلى إفساد الواقع، وكانت الثورة الصناعية هى بدء التحطيم الواقعى للمجتمع الأوربى.

قامت الثورة الصناعية حين اخترعت الآلة، وهذا تطور بشرى مقيد، أو كان يمكن أن يكون مقيداً لو أنه ولد فى ظروف طبيعية، أو فى ظل منهج ربانى تسير فيه الأمور بمقتضى شريعة الله. كانت الثورة الصناعية فى حاجة الى تمويل، فما يمكن أن تدور الآلة والمصنع بغير نقود، بغير رأس مال، وكان المال عند طائفتين اثنتين فى المجتمع الأوربى :

١- طائفة الإقطاعيين.

٢- طائفة التجار المرابين من اليهود.

وقد رفض الإقطاعيون تمويل الثورة الصناعية. وهذا شئ طبيعى بالنسبة للمزارع، فهو لا يمكن أن يخاطر بماله فى مشروع غير مضمون. إنما يستغل أمواله فى الزراعة لأنه يحفظ دورتها: يضع البذرة... تنبت.. تثمر.. يبيع الغلة فى السوق.. وهكذا..

ومن ثم التفت أصحاب الصناعات إلى الممول الثانى الذى يمكن أن يمولهم: وهم المرابون، وهؤلاء قبلوا عن طيب خاطر لأنهم لا يخسرون شيئاً. يقرضون ويأخذون الفوائد ويأخذون ضماناً للقرض، فلا يخسرون شيئاً، ربحت

التجارة أم خسرت، ومن ثم أقدموا على تمويل الصناعة، وإذا ولدت الصناعة فى حمى الرأسمالية اليهودية فقد عمل اليهود على إفساد المجتمع الصناعى لحسابهم هم.

كان العامل يعمل ساعات طويلة ولا يتناول إلا القليل من الأجر. وما كان يعمل فى المصانع فى ذلك الوقت إلا ذوو الفتوة الجسدية، لأن الآلة كانت ثقيلة، وكانت تحتاج إلى قوة جسدية لإدارتها.

شباب فى زمن الفتوة ولا يُعطى أجراً كافياً لتأسيس أسرة، وإن كانت له أسرة فى الريف فلا يستطيع أن ينقلها إلى المدينة لأن تكاليف الحياة فى المدينة غالية، فماذا يصنع؟ هذه فترة تعطل جنسى إجبارية مفروضة على هذا العامل.

وعندئذ جاء الشياطين بالحل...

أنت شاب فتيّ مفتول العضلات وليس عندك متصرف للجنس فماذا تعمل؟

هل تكبت نفسك؟ لا ينبغى ذلك، البغاء فى المدينة متوفر، ولقد كان البغاء دائماً موجوداً فى المدينة، لكنه كان بغاء السادة.. بغاء الأثرياء، فالآن صار بغاءً شعبياً على مستوى العمال.

هذه كانت الأولى: توسعة دائرة البغاء فى المدينة .

ثم بدأ العمال يضربون حين ذهبت نشوة المجيء إلى المدينة، ففى أول الأمر فرحوا بالتحرر من سيطرة الإقطاعى ومن العبودية للأرض. ثم أفاقوا فوجدوا أن الأجر الذى يتناولونه ضئيل للغاية لا يكفى ليعيشوا به حياة إنسانية كريمة.

ويقولون إن الرأسمالية لابد أن تحتفظ دائماً بجيش من المتعطلين، حتى إذا أضرب العمال ضربتهم به ... أى عندما يمتنع العمال عن العمل ليطالبوا

بأجور أعلى يكون هناك صف من المتعطلين، جاهزاً يأتى بهم صاحب رأس المال ليضعهم بدلاً منهم حتى يعودَ العمال الممتنعون عن العمل فيرضخوا ويقولوا رضينا أعطونا ما تريدون ...

ولأمر ما استُدرجت المرأة لتعمل كجيش احتياطى يضرب به المطالبون برفع الأجر... تعمل فى المصنع ذات الساعات وتُعطى نصف الأجر ...

لماذا؟ لا أحد يستطيع أن يرد على هذا السؤال حتى ترى نهايته الأخيرة لماذا تعطى نصف الأجر؟ أى شرع؟ أى قانون؟ أى عدل يقول أن الاثنين الذين يشتغلان فى مكان واحد وذات ساعات العمل يعطى أحدهما ضعف الآخر؟

إنما الذى حدث بالفعل أنه صارت للمرأة بهذا الوضع قضية... قضية المساواة فى الأجر مع الرجل. ..قضية منطقية جداً وعادلة جداً ما يستطيع إنسان ذو قلب وذو ضمير أن يعارض فيها!

وقيل لها: لابد أن تُضْربى وتقومى بمظاهرات احتجاج ليرفع أجرك. وقامت بمظاهرات احتجاج فما نُفِّذَ لها طلب.

قيل لها: لابد أن تطالبى بحق الانتخاب لأن النواب هم الذين يشرِّعون فى البرلمان، والنائب يعتمد على أصوات الرجال فلا يلتفت إلى حقوق المرأة، ولكن إذا أحس أن ذهابه إلى البرلمان معتمد على أصوات المرأة فعندئذ سيلتفت إلى حقوقها.

فطالبت – أو طولب لها – بحق الانتخاب!

وصارت هناك معارك تشترك فيها الصحافة، والخطباء، والمدافعون عن حقوق المرأة، والذين يحاربون الظلم الاجتماعى والظلم الإنسانى .. إلخ!

ووصلت المرأة إلى حق الانتخاب، وصار النائب يعتمد جزئياً على أصوات

النساء، ولكنه ما إن يضع قدمه فى البرلمان حتى ينسى قضية المرأة ويتذكر أنه رجل.

قيل لها: لن يُجْدِي إلا أن تذهبى بنفسك إلى البرلمان لتكونى نائبة ولتشاركى فى التشريع... اتسعت قضية المرأة، فما عادت الآن قضية المساواة فى الأجر فقط، إنما أصبحت من خلال المطالبة بالأجر قضية سياسية، قضية حق التصويت ... ثم قضية دخول البرلمان.. وقامت معارضات.. وصحف تؤيد وصحف تعارض.. خطباء يتنابزون بالألقاب ويتنازعون فيما بينهم لحساب قضية المرأة...

وحينما وصلت المرأة إلى البرلمان قالت: لماذ أتعلم تعليماً خاصاً... تعليماً نسوياً؟ هل أنا أقل من الرجل؟ لقد صرت نائبة...

وطالَبَتْ بأن يكون تعليمها مماثلاً لتعليم الولد، فيلغى التعليم النسوى، وتدخل مدارس تدرس ذات المناهج التى وضعت للصبيان...

وكانت معارك طويلة، ومدافعون عن حقوق المرأة، واتسعت قضية المرأة، وأدخلت مدارس مناهجها هى مناهج الأولاد.

فلما أخذت البكالوريا أو الثانوية العامة على منهج الولد قالت: لماذا يدخل هو الجامعة ولا أدخل؟ لابد أن أدخل الجامعة...

واتسعت قضية المرأة... اتسعت قضية المساواة، وقامت معركة جديدة: معارضون لدخول الفتاة الجامعة ومؤيدون...

ودخلت كلية الآداب أولاً باعتبار أن المرأة ذات طبيعة رقيقة تناسبها دراسة الآداب والشعر والتاريخ ... إلخ

دخلت كلية الآداب فتاة واحدة فى مبدأ الأمر أو فتيات قليلات...

ولكنهن ينزوين بعيداً عن الطلاب ...

فلما كثر عدد الفتيات قيل: لابد من إيجاد روح جامعية..

ما هى الروح الجامعية؟

هل هى الدراسة؟ التحصيل؟ الجدية فى الاستذكار؟

هل هى روح البحث العلمى؟

كلا... **الروح الجامعية هى الاختلاط**... لابد أن يكون هناك اختـلاط... هذا هو الذى يحدث... الروح الجامعية، ما ينبغى أن تكون الطالبات فى عزلة... تخصص لهن الصفوف الأولى فى المدرج لماذا؟ تميز مجحف بالمرأة...

وتفوقت المرأة فى أول عهدها بالجامعة... وقد يكون تفوقاً حقيقياً فعلاً لأنها دخلت بروح التحدى ولأنها غير مشغولة بمشاغل الأولاد... **وقد يكون تفوقاً مزيفاً يصنعه الأساتذة بتأثير عوامل شتى.**

وتجيء الصحافة، فتقول: هاهى ذى الفتاة قد دخلت الجامعة وتحدت زميلها الطالب وتفوقت عليه...

كنتم ترون أنها أقل منه ذكاءً وأقل قدرة على التحصيل الجامعى... لقد تفوقت عليه.

وهنا صارت القضية: لماذا تكتفى بكلية الآداب؟ لماذا لا تدخل كلية الطب لتكون طبيبة نساء؟ ثم لماذا تقتصر على الطب... لابد أن تدخل كل كلية.. ودخلت... حتى كلية الزراعة... ما أدرى ماذا تصنع فى كلية الزراعة... واتسعت قضية المرأة... فما عادت اليوم قضية المساواة فى الأجر!!

لقد كانت هذه البذرة الأولى لقضية المرأة، ولكنها نُسيت تماماً وصارت قضية المرأة اليوم هى المساواة التامة ... المساواة فى ماذا؟

المساواة فى الإنسانية مبدأ الإسلام يدعو إليه: ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُم مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِن بَعْضٍ** ﴾ [سورة آل عمران آية:١٩٥] ...

هذا تقرير للمساواة فى الإنسانية...

ولكن لا.. ما هو هكذا.. المساواة أوسع من ذلك وأخطر من ذلك: لقد كان الرجل فى أثناء هذه المعركة الطويلة وبإيحاءات دَارون وفرويد وماركس ودوركهايم كانت قد فسدت أخلاقه. وهنا جاء دور المطالبة بحرية الفساد للمرأة! لماذا يفسد الرجل وتتركونه يفسد، فإذا فسدت المرأة قلتم الدين وقلتم الأخلاق وقلتم التقاليد؟ فلتتحطم الأخلاق ولتتحطم التقاليد وليذهب الدين إلى غير رجعة إن كان هو الحاجز أمام حرية المرأة.

هكذا صيغت القضية لتضطغن المرأة...

ليمتلئ قلبها حقداً... ضد الدين والأخلاق والتقاليد حين تصور لها على أنها الحاجز الذى يحتجزها عن الحرية..

أى حرية؟ حرية مثل الرجل، فَسَدَا!! وهى تريد أن تفسد!! لا تقولوا لها حين تعطى جسدها لمن تشاء إن الدين يمنع مادام الرجل لا يتقيد به، ولا تقولوا الأخلاق، ولا تقولوا التقاليد ما دام الرجل لا يتمسك بالأخلاق ولا بالتقاليد. القضية فى وضعها هذا منطقية ولكنه منطق معكوس!

فما كان ينبغى للرجل بطبيعة الحال أن يفسد ولكن هكذا وضعت القضية..

أُفسد الرجل ووسّعت قضية المرأة حتى تطالب فى النهاية بحرية الفساد. لعلكم تذكرون آخر طرائف هذا الأمر: أن النائبة الأيرلندية العضو فى البرلمان

البريطانى حملت سفاحاً! وجاءت لتواجه البرلمان البريطانى بحق المرأة فى أن تحمل سفاحاً وأن تواجه المجتمع بهذا الحمل دون خجل!!

وهكذا صارت القضية..

قضية المساواة فى الأجر التى نبتت صغيرة ظلت تنمو وتنمو حتى صارت قضية المساواة فى الفساد الخُلُقى. ثم حين خرجت المرأة إلى الطريق تلقفها الشياطين فحوّلوها أداة للإغراء، لهدفين - كلاهما خطر:

الهدف الأول: بيوت الزينة التى تكسب من وراء ذلك حين تصنع العطور، وتصنع الأحمر والأبيض، وكل أدوات الزينة، وتعمل الموضات... مرة طويلة فى الأرض ومرة « مينى جيب » فوق الركبة وغداً عريانة، هذه الموضات تصنعها بيوت الأزياء وتكسب من ورائها مكسباً فاحشاً. فالأحمر الذى لا يكلف ملاليم يبيعونه بالقروش والجنيهات.

الأمر الثانى- وهو الأخطر، وهو إفساد المرأة، حين تتحول فى حد ذاتها إلى فتنة للرجل، ثم يتحول الرجل إلى مفتون همه أن يوقع النساء وأن يقع فى النساء.

وهكذا بعد أن كان الرجل فى مبدأ الأمر معارضاً لتحرير المرأة ويحتج بالدين والأخلاق والتقاليد عاد فنسى هذا الكلام كله؛ لأنه **وجد الوضع هكذا أمتع... حين تخرج المرأة سهلة... فى الطريق وفى المكتب... وفى المصنع... وفى المدرسة... يكون هذا أمتع له وأقرب إلى قضاء شهواته**... فكف عن معارضة تحرير المرأة! بل صار هو الذى ينادى بتحريرها!

هذا المجتمع الذى فسد فيه الرجل وفسدت فيه المرأة: فسدت فيه حتماً الأسرة، بل لم تعد هناك أسرة، فما دام الشاب يستطيع أن يقضى حاجته

الجنسية فى أى وقت، والفتاة تستطيع أن تقضى حاجتها...

لا تنسوا أن كل ولد في المجتمع الغربى لابد أن تكون له صديقة.. **يقولون صديقة فى الترجمة الخادعة المخاتلة، والحقيقة أنها ليست صديقة، وإنما عشيقة** (Girl Friend. Boy Friend) **يعنى** عشيقاً وعشيقة، وليس صديقاً **وصديقة كما تترجم ترجمة مزيفة للتزيين، ولابد لكل ولد فى المجتمع الغربى من عشيقة، ولابد لكل فتاة من عشيق**. واعلموا أنه حينما تبلغ الفتاة السادسة عشرة ولا يكون لها عشيق فإن مجلس الأسرة يجتمع لينظر فى هذه الكارثة، ويعرضون الفتاة على طبيب نفسانى لأنها فتاة شاذة منحرفة معقدة لابد من علاجها نفسانياً!!

هذه خلاصة العبث الشيطانى الذى عبثته بالمجتمع الغربى نظريات علمية تهاجم الدين والأخلاق والتقاليد وكأنما هى تحت ستار العلم المزيف مدفعية ضاربة موجهة للدين والأخلاق والتقاليد لتحطيمها.

مجتمع تفسد فيه المرأة ويفسد فيه الرجل وتتحلل روابط الأسرة، فينشأ هذا الجيل المشرد على وجه الأرض، هو الذى نشأ فيه الخنافس و(الهيبز).

واسمحوا لي - ولا حياء فى العلم، ولا حياء فى الدين، إنما هى مشكلة جادة نعرضها بجدية العلم-:

الشذوذ الجنسى منتشر فى المجتمع الغربى بصورة بشعة، التقرير الأميركى ١٩٥٠م يقول إن الشذوذ بلغ ٢٠٪ من مجموع الشعب الأميركى، ويقول إنها نسبة آخذة فى الازدياد.

كيف حدث ذلك؟ اعلموا أنه حدث بهذا التخطيط اللعين حين فقدت الأسرة سيطرة الرجل، وقد اعترفوا بهذا من سنوات قليلة إذ قالوا: إن الذى بعث

الشذوذ الجنسى هو فقدان سيطرة الأب فى الأسرة، وهم الذين أفقدوا الأسرة سيطرة الأب، لأن المرأة المشاحنة التى تتحدى وتنافس وتقول للرجل: أنا مثلك... لا سيطرة لك عليّ ... هى التى أفقدت الأسرة سيطرة الأب.

فماذا حدث؟ هى عملية سيكلوجية نفسية أشرحها لكم بسرعة بقدر ما يسمح به الوقت: الولد الذكر يتلبس بشخصية الأب لأن فيه نزوعاً فطرياً، خلقه الله فيه، يتلبس بشخصية العنصر المسيطرة فى الأسرة وهو الأب، فتتطابق الذكورة الفطرية مع الذكورة المكتسبة بالانطباع بالأب فينشأ ذكراً صحيحاً فطرياً، أما حين تنقلب الأمور، كما هى منقلبة اليوم، حيث صارت المرأة هى العنصر المسيطر فى الأسرة، فالطفل الذكر يتطبع بطباع الأم وليس الأب لأن الأم هى العنصر المسيطر فى الأسرة، فيتكون فى نفسه خليط من الذكورة والأنوثة، فيكون مستعداً للشذوذ الجنسى. والبنت بالعكس.

ومن هنا انتشر الشذوذ الجنسى فى المجتمع الغربى بهذه الصورة الفاحشة التى وصلت فداحتها إلى حد أن تعقد الكنيسة الهولندية على ولدين عقداً شرعياً، وجاء الكاهن القسيس رسول السماء يعقد هذا العقد ويباركه!!

إلى هذا المدى وصل الانحلال فى أوربا... وهذا هو المخطط الشيطانى الذى دمر الحياة فى أوربا، وقد قضوا على المسيحية عقيدة وديناً وأخلاقاً ومجتمعاً، ثم هم يستديرون اليوم ليحطموا الإسلام بذات الوسائل وبذات النظريات.. نظريات ماركس.. فرويد.. ودوركايم.

هم يريدون تحول المجتمع إلى مجتمع صناعى ليحلوا أخلاقه، والصناعة في ذاتها لا تحل الأخلاق أبداً فليس هذا تطوراً حتمياً كما يزعمون، إنما هو مفتعل، افتعلوه هم ليفسدوا الأخلاق ثم قالوا هذا تطور حتمى، والميوم

يستخدمون نظرية التطور وينشئون مجتمعاً متحللاً فاسداً ويقولون هذا تطور حتمى، ثم تتعالى الصيحات فى وجه كل من يعارض التحلل الفاسد...

أنت رجعىَ.. أنت متأخر.. أنت تريد أن ترجع عقارب الساعة إلى الوراء.. أنت تريد أن تقف أمام عملية التطور ومن يقف أمامها فإنها تسحقه..

هكذا يجابهون كل من يريد أن يحكم عقله أو يحكم دينه أو يحكم الأخلاق الربانية أو يحول دون هذا الفساد.. يطلقون عليه هذه الصيحات لينزعج ويفر ويترك الميدان للفساد يملأ وجه الأرض، هذا هو الطريق الذى يفسدوننا به..

لا تقولوا نحن فى مأمن، إن الأمن الوهمى خطر لأنه يسمح للسموم أن تسرى، إنهم لا يقولون لنا نريد أن نحطم دينكم، إنما يرفعون شعارات: حرية المرأة... قضية المرأة... العلم... التقدم العلمى... التقدم التكنولوجى... التقدم الحضارى.

ويهاجمون ما يسمونه تقاليد المجتمع البدوى البالية، وتقاليد المجتمع الزراعى البالية التى تحجز المرأة عن النشاط وتغل كيانها.

وحقيقة إن وضع المرأة فى العالم الاسلامى سئ؛ فهى مظلومة حقاً مغللة بالأغلال المادية والحسية والمعنوية والعقلية، لأننا لا نطبق منهج الله على حقيقته.

والعلاج: العلاج قبل أن تنجرف المرأة فى الطريق المسموم الذى انجرفت فيه المرأة الأوربية أن تعطى المرأة حقوقها الربانية... أن نطبق المنهج الاسلامى.

إن للمرأة قضية فى العالم الاسلامى، ولكنها ليست قضية المرأة وحدها، وليست على النمط المجنون الذى سارت فيه قضية المرأة فى المجتمع الغربى، إن

قضية المرأة فى المجتمع الإسلامى هى قضية الإسلام، هى أن نعود إلى الإسلام حقاً، نطبقه كما أنزله الله على رسوله عليه الصلاة والسلام، وكما طبقه الجيل الأول، هناك لم تكن توجد قضية للمرأة ولا قضية للرجل إلا قضية واحدة: هى تحكيم شريعة الله وتحكيم منهج الله.

وهذه هى قضيتنا.

هى قضيتنا لننجو من خطر هذه السموم الداهمة، إنها لا تغتالنا ولا تنفذ فى كياننا إلا حين ننحرف عن منهج الله، حين ننحرف نكون عرضة لهذه السموم، وعلاجنا لنقى أنفسنا أولاً من هذه السموم الداهمة ونستطيع أن نعطى البشرية ما تريده منا، علاجنا أن نعود إلى منهج الله كاملا، لا نفرط فيه، نعود إلى الله فى شأن المرأة، فى شأن الرجل، فى شأن الصبية، فى شأن الكبير والصغير، فى الفرد والمجتمع، فى نظم حياتنا كلها، سياسية واقتصادية وروحية وفكرية، نأخذ منهج الإسلام ونطبقه، نكون نحن الترجمة الحقيقية لهذا المنهج الربانى.. عندئذ سنكون وقينا أنفسنا من تلك السموم، ونكون قد انتزعنا أنفسنا من هذا الهوان والذل الذى يعانيه المسلمون فى كل الأرض، ثم نحقق ما طلبه الله منا.

إن هذه الأمة لم تخلق لذات نفسها..

﴿ كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاس ﴾ [سورة آل عمران آية: ١١٠] ﴿ وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [سورة البقرة آية:١٤٣] هذه الأمة ما خلقت من أجل ذاتها، إنما خلقت للبشرية كلها، تهديها وتعطيها النور الربانى..

ولن نستطيع أن نحقق ذلك للبشرية ولأنفسنا حتى نعود إلى منهج الله

كاملا، نقى أنفسنا السموم وننقذ أنفسنا من ذلك الوضع المزرى الذى نحن فيه ثم نقدم للبشرية ما هى فى حاجة إليه. البشرية التى فعلت فيها تلك السموم فعلها فمزقتها وحيرتها وأفسدت فطرتها، ما صار الفساد فى العقيدة ولا فى الأخلاق، إنه توغل أكثر من ذلك، وإنه يمسخ الفطرة ذاتها، فى الشذوذ الجنسى مرة، وفى صورة الهيبز والخنافس مرة، إنه مسخ الفطرة، واليوم ... أوربا تشكو الضياع، إن هذه الحركات التى يقوم بها الشباب فى أوربا: تأخذ صورة العنف مرة، وتأخذ صورة الخنافس والهيبز مرة، إنها تعبر عن الضياع، إنهم هم بأنفسهم يقولون: نحن ضائعون... نحن حيارى... لا نفهم لحياتنا معنى... نريد أن يكون لحياتنا هدف... نريد أن نتذوق... أن تكون لنا غاية... فنحن نعيش بلا غاية.

هذه البشرية فى حيرتها، فى قلقها، فى اضطرابها، فى تطلعها إلى اليد المنقذة ... تحتاج إلينا، فنحن الذين نملك العلاج، نملكه بما أنزل الله علينا بنعمته الربانية التى مَنَّ الله علينا بها، هذه النعمة الربانية هى العلاج لنا وللبشرية جميعاً.

فهل نعود؟

إن شاء الله نعود..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الإعلام الإسلامي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين:

أيها الإخوة الأفاضل السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

أعتذر إليكم أولا عما أحس به من جهد، فقد خرجت من بيتي في مكة مُهاجرا إلى الرياض في الثامنة صباحاً، فوصلت هنا في الرابعة بعد الظهر، ولو أنني كنت مسافراً إلى المريخ أعتقد أنني كنت قطعت أكثر من نصف الطريق! فإذا وجدتم أنكم لا تفهمون بعض ما أقول أو وجدتم كلامي مفككاً لا ارتباط فيه فإني أعتذر إليكم مقدماً بما أحس من جهد وأطلب دعواتكم لي بالتوفيق وحسن البيان.

ثم أبدأ حديثي عن الإعلام ... الإعلام الإسلامي .

إنني لم أكن حاضراً في اليومين السابقين ولست أدري على وجه التحديد ماذا قيل في هذين اليومين، فقد أكرر بعض ما قيل ولكن عذري أنني لم أعرف أنه قيل، ثم إن الذكرى تنفع المؤمنين ولا بأس بأن نكرر بعض المعانى الإسلامية، فإننا في حاجة في الحقيقة أن نزداد معرفة بالإسلام، أو نزداد تذكراً له، فإننا في الواقع نعيش في الغربة الثانية التى تحدث عنها رسول الله ﷺ حين قال: « بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيباً وَسَيَعُودُ غَرِيباً

كَما بَدأَ فَـطُوبَى لِلغُرَباءِ » [1].

إن الإسلام اليوم يعيش غربته الثانية غريباً بين أهله؛ بمعنى أن أهله يجهلون كثيراً من حقائقه، ومن أجل ذلك فإننا صرنا إلى ما تحدث به الرسول ﷺ حين قال: « يُوشِكُ أَنْ تَتَداعى عليكم الأُمَمُ كما تَتَداعَى الأَكَلَةُ إِلى قَصعَتِها ».

قالوا: أمن قلَّة نحن يؤمئذ يا رسول الله؟

قال: « بَلْ أَنتُم كَثيرٌ ولكِنَّكُم غُثَاء كَغُثَاءِ السيل» [2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٥/٢٣٢) كتاب الإيمان، باب « بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً... ».

(٢) **صحيح**. ورد عن ثوبان من ثلاثة طرق:

الأول: أخرجه أحمد (٢٧٨/٥)، والطبراني في الكبير (رقم ١٤٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (١٨٢/١)، وابن أبي الدنيا في العقوبات، ومحمد بن مخلد البزار في (حديث ابن السماك)- كما في الصحيحة (رقم ٩٥٨) - كلهم من طريق المبارك بن فضالة عن أبي عبد الله مرزوق الحمصي عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان مرفوعاً وسنده جيد لا بأس به، وقد صرح المبارك بن فضالة بالتحديث فأمنّا من تدليسه.

الثاني: أخرجه أبو داود (رقم ٤٢٩٧)، والطبراني في مسند الشاميين (رقم ٦٠٠)، والبيهقي في الدلائل (٦/ ٥٣٤)، والبغوي في شرح السنة (رقم ٤٢٢٤)، من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي عبد السلام عن ثوبان - به مرفوعاً.

وإسناده يصلح للمتابعات فإن أبا عبد السلام هذا مجهول، وقال الذهبي في الميزان (٢٩٥/٢): « روى عنه ثقتان فخفت الجهالة ».

الثالث: أخرجه أبو داود الطيالسي (رقم ٩٩٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٥/ ٥٣-٥٤)،والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ رقم ١٠٣٧٢)، كلهم من طريق =

وإن هذا الجمهور الضخم الذي يبلغ تعداده ثمانمائة مليون من المسلمين عددهم كثير، ولكنهم كما وصفهم رسول الله ﷺ هذا الوصف الدقيق: تتداعى عليهم الأمم كما تَدَّاعى الأُكلة إلى قصعتها، ويقولون: هلموا هنا وليمة، وهم « غثاء كغثاء السيل » لماذا؟ لأن الإسلام غريب بينهُم، لأنهم يجهلون كثيراً من حقائق الإسلام، وقد يكونون مع ذلك كله مسلمين، ولكن الإسلام في قلوبهم كالتيار الضعيف، موجود، ولكنه لا يدير آلة، ولا ينير مصباحاً، وهكذا الإِسلام الذي يعيش اليوم في قلوب هذه الثمانمائة مليون: لا يعطي كياناً حقيقياً للمسلمين، وينطبق عليهم قول الشاعر القديم:

ويُقْضَى الأَمرُ حين تَغِيبُ تَيْمٌ
ولا يُستأذَنُون وَهم شهود

ونرى ذلك في قضايانا التي تعرض في هيئة الأمم وفي مجلس الأمن وفي غيرهما كيف يُقضى فيها كأننا غير موجودين، حتى وإن كنا بين ظَهْرَانيهم يُقضى علينا في كل قضية من هذه القضايا، لماذا؟ لأن وجودنا في الأرض ضعيف، لأن هذه الدول تتداعى علينا تأكل حقوقنا، تأكل خيراتنا، تأكل

= أبي الأشهب عن عمرو بن عبيد عن ثوبان موقوفاً. وعمرو بن عبيد ذكره ابن حبان في الثقات (٥/ ١٧٩)، وذكره ابن أبي حاتم وكذا البخاري ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً. وأخرجه البخارى في تاريخه الكبير (٣٤٠/٤) من حديث أبي هريرة معلقاً مرفوعاً، وفي سنده نظر.

فائدة: تمام الحديث كما في بعض طرق الحديث: « ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ». فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: « حب الدنيا، وكراهية الموت ».

كرامتنا، وتريد أن تستعبدنا، لماذا حدث ذلك؟ هذه قصة قد نعود إليها في أثناء الحديث.

إننا حين نتحدث عن الإعلام الإسلامي يتبادر إلى ذهن كثير منا الأحاديث الدينية، كأنما الإسلام قد انحصر في هذه الأحاديث، كأنما تحول الإسلام كله إلى مواعظ تُلقى على الناس - وإن المواعظ لَمِنَ الإسلام حقاً، وإنّ ما يرد في هذه المواعظ من دعوة إلى مكارم الأخلاق ودعوة إلى تذكرة الآخرة ومثل هذه الدعوات إنه لمن الإسلام حقاً - ولكن حين نحصر الإسلام في هذه المعاني فحسب فما أضأله إذاً: وما أبعده إذاً عن الإسلام الحقيقي الذي نزله الله ليحكم هذه الأرض ولتتكون منه أُمة وصفها خالقها حين كانت تستحق هذا الوصف بقوله سبحانه: ﴿ **كُنتُم خَيـرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ تأمـرونَ بالمعروف وتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وتُؤْمِنُونَ بالله** ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠].

ووعد هذه الأمة بالاستخلاف والتمكين:

قال سبحانه: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الذيَن آمَنُوا منكُم وَعَمِلُوا الصَّالحات لَيستَخْلفنَّهم فى الأرض كَما استخلفَ الّذين مِن قَبْلهم وليُمكنَن لَهم دِينهُمُ الذي ارتضَى لَهم ولَيُبَدِّلَنهم مِن بَعدِ خَوفِهِم أمنًا يعبدوننى لاَ يُشْرِكُونَ بي شيئًا** ﴾ [سورة النور: الآية ٥٥].

هذا الإسلام الذي صنع تلك الأمة الذي صنع خير أمة... أخرجت للبشرية كلها في تاريخها كله... هذا الإسلام الذي مُكّنت أمته في الأرض - ولا شك - كان أضخم بكثير جداً من تلك المواعظ التي يتبادر إليها ذهننا حين نتحدث عن الإعلام الإسلامي.

ومن جهة أُخرى فينبغي أن نعلم أن الموعظة لها جرعة معينة، إذا تجاوزتها أتت برد فعل عكسى، لقد كان الرسول ﷺ أحب شخصية في التاريخ إلى

أتباعه وأحبابه، لا توجد شخصية في التاريخ كله نالت من الحب والتقدير والإعزاز والاحترام ما نالته شخصية الرسول الله ﷺ، وهذا بشهادة رجل مثل أبي سفيان قبل أن يسلم حين سأله قيصر – أو ما أذكر الآن المناسبة – قال: ما رأيتُ أحداً يحبُّه الناسُ كحُبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً[1]» عليه الصلاة والسلام. هذا الرجل المحبوب على هذه الدرجة التى لا مثيل لها في التاريخ

---

(١) مرسل. رواه ابن إسحاق في السيرة (٢٤٥/٣) بدون إسناد، في « ذكر يوم الرجيع »، ومن طريقه: أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ق٤٠/١)، والطبري في تاريخه (٥٤٢/٢)، عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً.

وسبب مقولة أبي سفيان هو تأهب قريش لقتل (زيد بن الدثنة) فقال أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أنَ محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي !! فقال أبو سفيان تلك المقالة.

والقصة أخرجها البخاري (رقم ٣٠٤٥، ....) وغيره، من حديث أبي هريرة، وليس فيه ما ذكر من هذه المقالة.

وتعظيم الصحابة للرسول ﷺ ومحبته يفيده ما أخرجه البخاري في صحيحه (رقم٢٧٣١، ٢٧٣٢– طرفه رقم ١٦٩٤، ١٦٩٥) من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة في قصة صلح الحديبية، وفيها يقول عروة بن مسعود الثقفي: « .. أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مَليكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً ! والله إن يتنخم نخامة إلاّ وقعت في كفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له ... » .

تُروَى الآثار أنه يقول الصحابة أنه كان « يتخولنا بالموعظة » [1] أي بين الحين والحين مخافة السآمة.

فإذا كان الرسول ﷺ - أحب البشر إلى البشر - يشفق على أصحابه وأتباعه من كثرة الوعظ لكي لا يضجرهم ويملهم؛ فما بالنا نحن حين نفكر في الإعلام الإسلامي لا نفكر إلا في الموعظة ونظل نكرر الموعظة حتى تضجر منها النفوس وحتى يحدث ما نكره أن نسمع أو نقول.

إن الفتى والفتاة حين يسمعان الحديث الديني في الإذاعة أو في التلفزيون يقفلان الجهاز حتى ينتهى الحديث.

ما هكذا يكون الإعلام الإسلامي!!

ولكن لماذا يتجه تفكيرنا - حين نقول الإعلام الإسلامي - إلى المواعظ والأحاديث الدينية ولا يتجه إلى أبعد من ذلك؟! هل يجيء هذا اعتباطا أم أن له أسبابه؟ بلى إن له أسبابا: أسبابه الحقيقية أن الإسلام في تصورنا لا يزيد على هذا النطاق، إننا لا نعيش الإسلام كاملا كما عاشه الجيل الأول رضوان الله عليهم، وكما فهمه وأفهمه للناس رسول الله ﷺ، إننا نعيش الإسلام في حدود ضيِّقة، فإذا تحدثنا عن الإعلام الإسلامي تبادر إلى ذهننا في الحال المواعظ والأحاديث الدينية، لأن هذا هو النطاق الذي انحصر فيه الإسلام في حِسِّنا، لقد كان الإسلام في حس الجيل الأول هو الحياة كلها ،كل خطرة من خطرات القلب، كل فكرة من فكر العقل، كل تصرف من تصرف

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود. أخرجه البخاري (رقم ٦٨) كتاب العلم، ومسلم في صحيحه (٢٨٢١/ ٨٢، ٨٣) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: الاقتصاد في الموعظة.

الإنسان، كل سلوك واقعي له في الحياة داخلٌ في دائرة الإسلام، لا يوجد شيء واحد في حياة الإنسان المسلم من صباحه إلى مسائه من يوم تكليفه إلى يوم موته... لا يوجد شيء واحد منه خارج عن دائرة الإسلام أو عن مظلة الإسلام.

كانوا يفهمون - والقرآن نزل باللغة العربية التي يفهمها العرب جيداً ولا يحتاجون إلى شرح مفرداتها وشرح معانيها وشرح سياقها لأنها لغتهم - كانوا يفهمون من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ ليعبُدونِ ﴾ [سورة الذاريات: الآية ٥٦] أن الحياة كلها بحذافيرها عبادة لله، وليست العبادة هي شعائر التعبد فحسب؛ إنما كل عمل وكل فكر وكل شعور يَتَوجه به إلى الله ويبتغي فيه وجه الله ويُلتزم فيه بأمر الله فهو عبادة.

كذلك فهموا: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتي ونسكِي وَمَحيَايَ وَمَمَاتِي لِله ربِّ العَالَمين * لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٦٢، ١٦٣]. هذه هي العبادة الإسلامية، إنها ليست شعائر التعبد، إنها ليست شيئاً يقصد به الآخرة على حساب الدنيا، إنما الإسلام هو الذي يقول: « الدُّنيا مَزْرَعَةُ الآخرة »[1] وهو الذي يقول ﴿ وابتَغ فِيما آتاكَ اللَّهُ الَّدارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِن الدُّنيَا ﴾ [سورة القصص: آية ٧٧].

---

(١) لا أصل له. ذكره الغزالي في الإحياء (١٩/٤) وقال العراقي: « لم أجده بهذا اللفظ مرفوعاً » وقال القاري - كما في كشف الخفاء (٤٩٥/١)- : معناه صحيح مقتبس من قوله تعالى ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ﴾، وقال ابن الغرس: = « لا يعرف »؛ وأنشدوا:

إذا أنتَ لم تزرعْ وأبصرتَ حاصداً ندمتَ على التفريطِ في زمن البذر

ورواه في الفردوس (رقم ٢٩٢٣) عن ابن عمر- بلا سند -: « الدنيا قنطرة =

ويقـول أو يُعَلِم الناسَ أن كل عمل يعملونه هنا في الحياة الدنيا هو لعمارة الأرض من ناحية وهو لعمارة الدار الآخرة من ناحية أخرى حين يبتغى به وجه الله، ومن هنا تكون حياة المسلم كلها عبادة، وكلها للدنيا والآخرة في آن واحد، صلاته التي يصليها إنها للآخرة بغير شك؛ ولكنها ليست منقطعة

= الآخرة فاعبروها ولا تعمروها، وإن الله عز وجل خلق الدنيا للعمل والخراب، والآخرة للبقاء والجزاء والعقاب »، وأخرجه العقيلي في الضعفاء (٨٩/٣)، والحاكم (٣١٢/٤-٣١٣)، والرامهرمزي في الأمثال (رقم ٢٤، ١٠٩)، وابن الجوزي في العلل (٣١٢/٢- ٣١٣)، وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق -كما في الإتحاف وكشف الخفا -، كلهم من حديث طارق بن أشيم مرفوعاً بلفظ: « نعمت الدار لمن تزود منها لآخرته حتى يرضى ربه عز وجل، وبئست الدار الدنيا لمن صدّته عن آخرته، وقصرت به عن رضى ربه، وإذا قال العبد: قبّح الله الدنيا، قالت الدنيا: قبحّ الله أعصانا لربه » وفي سنده: عبد الجبار بن وهب وهو مجهول.

وأخرج أبو نعيم في الحلية (١٢٥/٦) بسنده عن سعيد بن عبد العزيز - قوله -: « الدنيا غنيمة الآخرة ».

وعند أبي نعيم (٢٣١/٨) من قول محمد بن يوسف: « الدنيا غنيمة الله أو الهلكة، والآخرة عفو الله أو النار » .

ولابن عساكر عن يحيى بن سعيد قال: « كان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: اعبروا الدنيا ولا تعمروها، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع في القلب الشهوة ».

وقد ورد قوله: « حب الدنيا رأس كل خطيئة » مرفوعاً. وهو موضوع بلا شك، وانظر الضعيفة (رقم ١٢٢٦)، وتذكرة الموضوعات (ص ١٧٤، ١٧٥).

وأخرج ابن سعد في طبقاته (٦٠/٢/٣) عن أبيّ بن كعب موقوفاً: « إن الدنيا فيها بلاغنا، وزادنا إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التي نُجزى بها في الآخرة ».

للآخرة، فإن الله يقول له: ﴿ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحشَاءِ والمُنكَرِ ﴾ [سورة العنكبوت: آية ٤٥]، أي أن لها مقتضًى أرضياً ينبغى أن تؤديه هنا في الحياة الدنيا، وإلا فليست صلاة حقيقية.

ويقول له: ﴿ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُمُ الصيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذِينَ مِن قَبلِكُم لعَلَّكُم تَتَّقُون ﴾ [سورة البقرة: آية ١٨٣] أي أن للصوم – وهو عبادة للآخرة بغير شك – أن له مقتضًى ينبغي أن يتم في هذه الحياة الدنيا وهو التقوى، فإن لم يؤدِّ إلى التقوى فكأنه لم يكن، وقبل ذلك العبادة الكبرى – العبادة الأولى – لأن الصلاة هى العبادة الثانية وليست هي الأولى إنما العبادة الأولى هي: «لا إله إلا الله» وقد كان يفهم المسلم الذي نزل إليه هذا الدين أول مرة ...كان يفهم من « لا إله إلا الله » أنها منهج الحياة الكامل، لأنه كان يفهم منها أنها التزام بالاسلام كله بحذافيره، ومن أجل ذلك لقيت لا إله إلا الله ما لقيته من معارضة من الجاهلية، ولو كانت كلمة ... كما يجول في حس الأجيال المعاصرة أنها كلمةٌ تُنطق باللسان فيضمن بها الإنسان صفة الإسلام الدائمة ... يضمن بها فوق ذلك ... الجنة في جيبه ... لو فهمت قريش أنها مجرد كلمة تقال فَلِمَ كانت تُعارضها؟

ولم وقفت في سبيل الدعوة بهذه الضراوة؟

ولم أنكرها الناس؟

ولم قال القائل لرسول الله ﷺ حين سأله إلى أي شيء تدعو الناس؟ قال: أدعوهم لـ «لا إله إلا الله » قال: هذا أمر لا تتركه لك العرب؟ لماذا إن كانت مجرد كلمة ينطقها الإنسان بطرف لسانه فيدخل بها الجنة؟! ... ضمن الجنة في جيبه بمجرد أن نطق بلا إله إلا الله... لو كانت هكذا ما وقف في سبيلها

من وقف في الجاهلية، وما احتاجت إلى هذا الجهاد الضخم الطويل من رسول الله ﷺ ومن أصحابه وأتباعه من بعده، إنما هي احتاجت إلى كل هذا الجهد والجهاد لأن لها مقتضىً، لأن لها مدلولاً، لأنها ليست كلمة، إنما هي كلمة ذات ثقل، كلمة ضخمة يصفها الرسول ﷺ بأنها تملأ ما بين السماوات والأرض، تملؤها بالصياح؟ كلا! تملؤها بالعمل، بعمل على منهج معين، بالعمل بمقتضى الإسلام.

* * *

هكذا فهمها الجيل الأول، وهكذا فهمها الذين أبوْا أن يدخلوا في الإسلام، أبوا لهذا ... أبوا أن ينطقوا بلا إله إلا الله لأنهم عرفوا معناها، عرفوا أنها التزام بما جاء في هذا الكتاب كله، وحين نقول الكتاب فنقصد السنة أيضاً بغير شك؛ لأن السُّنة شارحة للكتاب ومُكَمِّلة له.

فلا إله إلا الله العبادة الأولى هي منهج الحياة الكامل، هي الصلاة والصيام والزكاة والحج بعد شهادة لا إله إلا الله، وهي العمل لعمارة الأرض، وهي الجهاد في سبيل الله، وهي إقامة شريعة الله في الأرض، وهي طلب العلم لأن طلب العلم فريضة، وهي التخلق بأخلاقيات لا إله إلا الله، لأن لا إله إلا الله لها أخلاقيات.

أليست لا إله إلا الله هى الإيمان والله يقول: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنُون * الّذينَ هُم فى صَلاَتِهِم خَاشعُونَ * وَ الّذينَ هُم عن اللّغــو مُعْرِضُونَ * وَالّذِين هُم لـلزّكَاةِ فَاعلُونَ * والّذين هُم لفُروجِهِم حَافظُونَ * إلاَّ عَلَى أزواجـهم أوْ مَا مَلَكَتْ أيمَانُهُم فَإِنّهم غيـرُ مَلُومِينَ * فَمنِ ابْتَغَى وَراءَ ذَلِكَ فــأُولئـك هُم العَادُونَ * والّذينَ هُم

لأمانَاتِهم وَعَهْدِهِم رَاعُونَ * وَالّذينَ هـم عَلَى صَلواتِهـم يُحَافِظُون * أولئك هُمُ الوارِثُون * الّذينَ يرثونَ الفِردَوْس هُم فِيـهـا خَالِدون ﴾ [سورة المؤمنون: الآيات من ١-١١]. تلك أخلاقيات لا إله إلا الله، أو تلك بعض أخلاقيات لا إله إلا الله، فقد تفرقت هذه الأخلاقيات في صور مختلفة من القرآن.

اقرأوا، ولن أتلو عليكم، إنما أُذكركم: ﴿ وَعِبادُ الرحـمن الّذينَ يَمشُونَ عَلَى الأرْضِ هَوْنًا ﴾، إلى قوله تعالى، إلى الآيات الآخيرة من السورة: ﴿ وَ الّذينَ لاَ يشـهَدونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا باللغوِ مـروا كـرامًا * والّذيـن إِذَا ذُكِّروا بآيَاتِ رَبِّهـمَ لَم يخروا عَلَيهـا صُمًا وَعُميانًا * وَالذيـن يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أزواجـنا وذريـاتِنا قُرة أعْيُن وَاجـعَلْنَا للمُتّقِينَ إِمَامًا * أولئك يُجـزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَروا وَيُلقَّوْنَ فِيـهـا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا * خَالِدينَ فِيـهَا حَسُنَتْ مُستَقَرًا وَمُقـامًا ﴾ [سورة الفرقان: الآيات من ٦٣-٧٦].

واقرأوا: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنّمـا أُنزلَ إِليـكَ مِن رَبك الحقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أولوا الألْباب * الّذين يُوفُونَ بِعَهدِ اللّهِ وَلا يـنقُضُون المِيثَاق * وَالّذين يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أن يوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُم وَيخَافُونَ سُوءَ الحِسَاب * وَالّذينَ صَبَروا ابْتغَاءَ وَجهِ رَبِّهم وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأنفقـوا ممَّا رَزَقْنَاهُم سـرًا وَعَلانـيَةً، وَيَدْرَؤُونَ بِالحسَنَةِ السيـئـةَ أُولئِكَ لَهم عُقْبى الدار ﴾ [سورة الرعد: الآيات ١٩-٢٢].

تلك أخلاقيات لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد التزم بكل ذلك، التزم بأن يعيش حياته كلها في الإسلام وبمقتضى الإسلام.

حقيقة أن الإنسان تقع منه صغيرة، وهو الذى يسبح الليل والنهار لا يسأم ولا يفتر، لكن البشر من طبعه أن ينسى ﴿ وَلَقَدْ عَهِـدْنَا إِلى آدَمَ مِن قَبلُ فَنَسي وَلَم نَجِد لَهُ عَزْمًا ﴾ [سورة طه: الآية ١١٥]، ومن طبعه أن يخطئ: « ابنُ آدمَ خطَّاء

وخير الخَطَّائين التوابون »[1]، لكن الخطأ أو المخالفة عن لا إله إلا الله ليست على درجة واحدة؛ فبعض المخالفات هي من اللَّمم الذي يغفره الله ابتداء، وبعض المخالفات ذنوب هي بين يدى الرحمن، إن شاء غفرها وإن شاء عَذَّبَ عليها، وبعض المخالفات كبائر لا تغفرها إلا التوبة، التوبة الصادقة، وبعض المخالفات يُخرج من الملة إطلاقاً وهو الإعراض عن شريعة الله ﴿ويقُولُونَ آمنَّا باللَّه وبالرسُولِ وأطعنا ﴾ - أي يزعمون ذلكَ - ﴿ ثُم يَتولى فَريقٌ منهم مِن بَعد ذَلك وَمَا أولئكَ بالمؤمنينَ . وإذا دُعُوا إلى اللَّه وَرَسُولِهِ ليَحكُم بينهم إذا فَريقٌ مِنهُم مُعْرضُون ﴾

[سورة النور: الآيات ٤٧، ٤٨].

لا إله إلا الله العبادة الأولى في الإسلام تقتضي الالتزام بالإسلام كله، وهذا كان شأن الجيل الأول الذي عاش الإسلام بكامله، واستحق ذلك الوصف الرباني بكامله: ﴿ كُنتُم خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَت لِلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١١٠].

ولكن خلال التاريخ الإسلامي الذي أخذ من الأرض أو من الزمن أربعة

---

(١) **حسن**. أخرجه الترمذي فى جامعه (رقم ٢٤٩٩)، وابن ماجه (رقم ٤٢٥١)، والدارمي (٣٠٣/٢)، وأحمد (١٩٨/٣)، وابن أبي شيبة فى مصنفه (١٨٧/١٣)، وعبد بن حميد (رقم ١١٩٧ - منتخب)، وأبو يعلى (رقم ٢٩٢٢)، والحاكم (٢٤٤/٤)، والبيهقي فى الشعب (رقم ٧١٢٧)، وغيرهم، كلهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وسنده حسن لحال علي بن مسعدة الباهلي فقد اختلف فيه. وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٣٣٣/٦) من وجه آخر ضعيف عن الزهري عن أنس نحوه.

وأخرج البيهقي فى الشعب (رقم٢٧٣) عن ابن عمر موقوفاً: « كل ابن ادم خطّاء إلا ما رحم الله » . وأخرج مسلم فى صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم ».

عشر قرناً ظل المسلمون ينحدرون ويتخلفون عن معنى إسلامهم الحقيقي، ظلت تقع منهم مخالفات على الدرجات المختلفة التي بيناها، وتبقى المخالفات وتزداد ويضاف إليها مخالفات جديدة.

ظَلّ مفهوم العبادة يتضاءل حتى انحصر في شعائر التعبد فحَسْب.

وظل مفهوم لا إله إلا الله يتضاءل حتى انحصر في كلمة تنطق باللسان.

وظل مفهوم الدنيا والآخرة يختل حتى ظن المسلمون كما يظن غير المسلمين أن طريق الدنيا غير طريق الآخرة، وأن الإنسان إما أن يعمل للدنيا فيهجر الآخرة وإما أن يعمل للآخرة فيهجر الدنيا، وهذا مفهوم غير إسلامي.

وظل مفهوم العقيدة ينحصر حتى صار إلى المفهوم المسيحي: علاقة بين العبد والرب محلها القلب، ولا علاقة لها بشؤون الحياة الدنيا.

هذه كلها انحرافات تخلّف بها المسلمون عن الواقع الحقيقي للإسلام، ونحن اليوم نعاني هذا، وحين نتحدث عن الإعلام الإسلامي فيتبادر إلى ذهننا أنه المواعظ والأحاديث الدينية فذلك من أثر هذا التضاؤل الذي أصاب الإسلام في قلوبنا، الذي أصاب مفهوم لا إله إلا الله، وأصاب مفهوم العبادة، وأصاب مفهوم الدنيا والآخرة، وأصاب مفهوم عمارة الأرض، وأصاب المفاهيم الإسلامية كلها، فانحصر الإسلام في ذهننا إلى الدعوة إلى تذكّر الموت وتذكّر الآخرة والتحلّي بمكارم الأخلاق، وأقول - مكرراً - إن هذا كله من الإسلام، أما أن ينحصر الإسلام في هذه المعاني فلن يكون هو الذي يدير حياة البشرية، لن يكون هو الذي يصنع الأمة التي تستحق هذا الوصف: ﴿كُنتُم خير أُمَّة أُخرِجَت للنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠].

لن يكون هو الذى يمكّن لهذه الأمة في الأرض تحقيقاً لوعد الله ﴿وَعَدَ

اللّهُ الذين آمنُوا منكُم وَعَملُوا الصَّالحات ليستخلفنَّهم فى الأرْض ﴾ [سورة النور: الآية ٥٥].

لن يكون هو الذي يُكوّن الأمــة الرائدة: ﴿ وكَذلكَ جعلناكم أمّةً وَسَطًا لتكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ويَكُونَ الـرَّسُول عليكُم شَهـيداً ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٤٣].

لن يكون هو الذى يُكوّن الأُمة التي تعطي البشرية منهج الحياة، إنما حين ينحصر في تلك المعاني الصغيرة الضئيلة - صغيرة إذا ما قيس بمقياس عظمة الإسلام وشموله - نكون كما نحن الآن: نتطلع إلى أوروبا الجاهلية على أنها عملاق ضخم ونحن أولئك الأقزام الذين ننظر إلى أوروبا مبهوري الأنفاس، ننظر إليها على أنها مهبط الوحي، ونستصغر ما لدينا من وحي الله ونقول - نستغفر الله -: مضى أوانه ... تطورت الدنيا... جَدّت أمور ... كأنما الله سبحانه وتعالى يوم أنزل هذا الدين لم يكن يعلم أنه ستجد أمور، ولم يكن يعلم أن حياة الناس ستتطور، ولم يكن يعلم أن داروين سينشئ نظرية التطور، ويجيء من بعده من يجيء يرتب عليها نظريات اقتصادية ونظريات اجتماعية ونظريات نفسية... إلى آخر ما رتبوا عليها.

من أجل هذا التضاؤل الذي حدث في حِسّنَا من معانى الإِسلام لا نفكر في الصورة الصحيحة للإِعلام الإِسلامي.

ولو عشنا الإِسلام كاملاً، لو جرت به حياتنا كلها، أو أن ثقافتنا ثقافة إسلامية... لو أن اقتصادنا اقتصاد إسلامي، لو أن فكرنا فكر إسلامي، لو أن سلوكنا سلوك إسلامي، لو أن تصوراتنا للكون والحياة والإنسان تصورات إسلامية، لنبع تلقائياً إعلام إسلامي، لأنه ما الإِعلام؟ الإعلام ترجمة لفكر

الأمة ولفنها، نعم... والفن أيضاً ينبغي أن يكون إسلامياً، وأذكر بهذه المناسبة أني منذ ...كم سنة؟ يمكن خمس عشرة سنة... أخرجت كتاباً بعنوان: منهج الفن الإسلامي، فجاءني إخوة أفاضل ينكرون عَلَيَّ، يقولون فن في الإسلام؟! نعم أقول فن إسلامي والآن نحتاج إلى الفن الإسلامي نحتاج إلى إعلام إسلامي والإعلام لا يستغني عن الفن وينبغي أن يكون الفن متناولا في داخل المنهج الإسلامي الحياة كلها.

الإعلام يشمل الحياة البشرية كلها بجميع مناحيها، فكرها وثقافتها واجتماعها وأخلاقها وآدابها وفنونها وحياة المسلم ينبغي أن ترتكز على الإسلام في كل هذه الدوائر، ويوم يرتكز المسلم في جميع دوائر حياته على قاعدة الإسلام سنجد تلقائياً إعلاماً إسلامياً.

* * *

لكننا اليوم نقول الإعلام في البلاد الإسلامية مُجاف للإسلام.... نعم... ولكن ماذا في حياتنا ملتزم بالإسلام التزاماً كاملا حتى نخص الإعلام وحده ونقول الإعلام مجافٍ؟ فلنأخذ التعليم:

هل نحن على يقين من أن التعليم الذي نتعلمه تعليم إسلامي؟ خذ التعليم من المدرسة إلى الجامعة كتلة واحدة، أنا لن أفرق بين الابتدائي والإعدادي والثانوي والجامعة، آخذ الحسبة كلها...

هل نحن على يقين من أننا ندرس المواد بروح إسلامية؟ هل ندرس التاريخ بالروح الإسلامية؟

هل ندرس الجغرافية بالروح الإسلامية؟

هل ندرس العلوم البحتة بالروح الإسلامية؟ هل ندرس التربية وعلم النفس بالروح الإسلامية؟

هل ندرس الاقتصاد بالروح الإسلامية؟ نكون مغالطين لأنفسنا إن قلنا نعم. التاريخ مثلا... التصور الإسلامي للتاريخ مبني على قواعد ذكرها المنهج الرباني في القرآن ﴿ **خَلَقَكم فَمِنكُم كَافِر ومنكُم مُؤْمِنٌ** ﴾ [سورة التغابن: آية ٢] هذا هو التفريق الأول بين البشر: منكم كافر ومنكم مؤمن، ورتب على ذلك أن حياة المؤمن مهتدية بالوحي وبالمنهج الرباني، وحياة الكافر مهتدية بما يهديه إليه الشياطين.

ثم يترتب على ذلك أمر آخر: أن المؤمن الملتزم بمنهج الله يُمَكَّن في الأرض ، يُمكَّن ليقيم الخير في الأرض: ﴿ **الّذين إن مكنّاهُم في الأرضِ أقَامُوا الصَّلاةَ وآتوا الزكاةَ وأمَرُوا بِالمعرُوفِ ونَهَوا عَن المنكَر وَ للَّهِ عاقبَةُ الأُمُورِ** ﴾ [سورة الحج: آية ٤١] وإن الكافر قد يُمكَّن في الأرض ولكنه تمكين من نوع آخر: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عليهم أبْوابَ كُلِّ شَيء حَتَّى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا أخذْناهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ** ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٤٤].

فالكافر الذي لَجَّ في الكفر يُفتح عليه أبواب كل شيء كما نرى في الجاهلية المعاصرة، الجاهلية الأوروبية المعاصرة ... ممكّنونَ في الأرض في كل شيء، في أيديهم القوة العلمية والقوة المادية والقوة التكنولوجية والقوة السياسية والقوة العسكرية، كل أنواع التمكين مفتوحة له. لكن هناك فرق بين التمكين للكافر فترة من الوقت للابتلاء والفتنة - تقدمة للتدمير - وبين التمكين للمؤمن: ﴿ **وَلَو أنَّ أهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحنا عليهم بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأرضِ** ﴾ [سورة الأعراف: آية ٩٦]. انظروا المقابلة: ﴿ **فتحنا عليهم أبواب كل شيء** ﴾ لكن بغير بركة، بغير طمأنينة قلب، والآخرون المؤمنون: فتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض، هذا هو الفارق بين حياة المؤمن والكافر،

بين حياة الأمم المؤمنة وحياة الأمم الكافرة.

هل نستطيع أن نزعم أننا نُدَرِّس التاريخ لأبنائنا بهذه الروح الإسلامية؟ أنا شخصياً لا أستطيع أن أزعم ذلك، فالله يقول عن فرعون إله جاهلية، ونحن ندرِّس لأبنائنا ونقول: أمجاد الفراعنة، والله يصف الجاهلية بما ينطبق عليها... ما يسمى الحضارة الرومانية والحضارة الإغريقية والحضارة الهندية والحضارة الفارسية وما نسميه من حضارات الله يقول عنها إنها جاهليات ونحن ندرِّسها لأبنائنا ... نقول الحضارات.

كيف نُكَوِّنُ في أولادنا أو بناتنا الذين نعلّمهم في المدارس رُوحاً إسلامية وتصوراً إسلامياً إذا كنا ندرس لهم التاريخ من وجهة نظر غير وجهة النظر الإسلامية والتاريخ تربية ودرس التاريخ هو في الحقيقة درس تربية، درس تكوين تصورات، فكيف نتوقع من هذا الفتى أو الفتاة الذين نُعلمهم في مدارسنا أن تكون لهم تصورات إسلامية إيمانية إذا قدمنا لهم التاريخ كما تقدمه أوروبا الجاهلية.

عن الجغرافيا أيضاً: هل نستطيع أن نقول إننا على أقل تقدير جمعنا العالم الإسلامي في جغرافية واحدة، نقول: جغرافية البلاد العربية! لماذا؟

لماذا لا نقول جغرافية العالم الإسلامي؟ لماذا لا نضع في حِسِّ المتعلم الذي نُربيه أن العالم الإسلامي وِحْدَة؟ وحدة اقتصادية، وحدة عقيدية، وحدة كذا، وحدة كذا، لماذا لا نستنبت هذا الشعور بالوحدة في درس الجغرافيا؟ لا مانع من تدريس أجزاء مفصلة من العالم الإسلامي نركز عليها، العالم العربي مثلا: لا مانع أن المصري يهتم بدراسة مصر، وأن ساكن الجزيرة العربية يهتم بدراسة الجزيرة العربية جغرافياً أكثر من غيرها، لكن القاعدة التي ينبغي أن تشمل علم

الجغرافيا هي جغرافية العالم الإسلامي: الجغرافيا الطبيعية، الجغرافيا الاقتصادية، الجغرافيا البشرية... كله، وبعد ذلك بقية العالم.

الأطلس البريطاني - أطلس أكسفورد - تصفّحوه كيف يرسم العالم... ما أذكر النسبة الآن، ولكن في ذاكرتي أنها لا تقل عن الثلث - إن لم تكن النصف - لبريطانيا، نصف الأطلس وربعه أو أكثر للكمنولث، وبقية العالم الذي يقول عليه الإنكليز أو الأمريكان Down there بقية العالم الباقي في صفحتين أو ثلاثة في الآخر، وهذا مستند علمي، يدرّس في الجامعات! لا نريد نحن أن نتعصب لأن الإسلام يربينا على عدم التعصب لكن ينبغي بداهة أن يكون للعالم الإسلامي - موحداً - مكان في دراستنا الجغرافية.

ثم حين ندرس الجغرافية البشرية من أين ندرسها؟ إنها نظرية داروين وما ترتب عليها، ونحن في كثير من مدارسنا في العالم الإسلامي لا نتحرج ولا نتأثم من أن نقول لأبنائنا أن الإنسان كان قرداً ثم إنه استقام على قدميه، ثم إنه لما استطاع أن يستقيم على قدميه و شَبَّ إلى أعلى فإن دماغه اتيحت لها الفرصة أن تكبر! لأن الحيوان الذي ينحني برأسه على الأرض لا يستطيع دماغه أن يكبر! هكذا قال داروين: لأنه غير مرتكز! لكن الإنسان لما ارتكز على قدميه أتيحت له الفرصة أن يكبر دماغه وأن يصير أذكى! ثم تحول الإنسان الحيوان إلى إنسان! ثم بقية قصة البشرية ندرسها لأبنائنا!

والله يقول أنه خلق آدم خلقاً مباشراً من قبضة من طين ونفخة من روح الله، ونعطي أبناءنا هذه المعلومات في الجغرافيا البشرية ثم نستغرب بعد ذلك لماذا يغزوهم الغزو الفكري؟ لماذا لا تكون أفكارهم إسلامية؟

متى درّسنا لهم التصورات الإسلامية الحقيقية لتكون أفكارهم وتصوراتهم

إسلامية حتى إذا اشتغلوا في الإعلام أو تناولوا الإعلام مستقبلين أو معطين يتناولونه بالروح الإسلامية ؟!

* * *

التربية وعلم النفس: ما أحتاج أن أذكر تفاصيل كثيرة، لكن يكفي هذه الإشارات لتوجهنا إلى أمر خطير: إن التعليم الذي نعطيه لأبنائنا في المدارس ليس مرتكزاً على القاعدة الإسلامية، ولا يُستمد من الروح الإسلامية، والتعليم وثيق الصلة بالإعلام، هو الرافد الأكبر الذي يصب في الإعلام، ثم ماذا في حياتنا إلا القليل من بقايا الفكر الإسلامي والتصور الإسلامي والسلوك الإسلامي حتى ينعكس في الإعلام.

إن الإعلام ينبغي أن يكون صورة واقعية، وواقعنا - وينبغي أن نكون صريحين مع أنفسنا - واقعنا بعيد بعداً كبيراً عن الإسلام، وإن كانت فيه بين الحين والحين في بعض بلدان العالم الإسلامي بقايا من الإسلام، لكن كيف نتصور الحياة البشرية؟

كيف نتصور صراع القوى الموجود؟

هل نتصوره على حقيقته؟

يعني بعبارة أخرى أوْضح: هل نجد في أنفسنا الجرأة الكافية؟ جرأة الاعتقاد، جرأة الإيمان؟ أن ننظر إلى أوروبا على أنها جاهلية ونتظر إلى صراع الدول الكبرى على أنه صراع جاهلي، ونصفه في إعلامنا بهذا الوصف، فلنكن صرحاء: هل نجد في أنفسنا هذه الجرأة؟

أحدثكم عن لمحة من التاريخ القديم حين كان المسلمون يعيشون الإسلام

حقاً ويعتزون بإسلامهم وبإيمانهم، حين وَعَوا ذلك الدرس: ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحزَنُوا وأنتم الأعْلَوْنَ إن كنتم مُؤْمِنِين** ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٣٩].

لقد كانوا يقولون عن أوروبا إنها عبدة أوثان، لأنهم يعبدون التماثيل والصور، وكانوا يصارحون أوروبا برأيهم فيها، وبلغ من قوة الحق الذي آمن به أولئك المسلمون أن قام من قام يحطم التماثيل، وتعرفون قصة « ليوفي ايكونو كلاست » محطم الأيقونات، محطم التماثيل، محطم الصور، لقد شعر الرجل بالحرج أمام المسلمين، أمام اتهام المسلمين لهم بأنهم عبدة أوثان، وقام يحطم الأوثان لكى ينجو من التهمة التي وجهها المسلمون إليه.

هل نجد الآن في أنفسنا الجرأة التي نواجه بها أوروبا بجاهليتها الاعتقادية وجاهليتها الفكرية وجاهليتها السلوكية؟ إنني على يقين أن لا.

أقول هذا بمناسبة أن أحد الإخوة قال لى – وهو محق – أننا ينبغي أن نسارع إلى تشكيل إعلام إسلامي، وإلا فإن أوروبا تغزونا بالإعلام وتفسد أخلاقنا بإعلامها، بالتليفزيون والإذاعة والسينما، وفي غد ستتصل محطات التلفزيون عن طريق التلستار. الآن الاستقبال التلفزيوني محدود لأنه بطبيعته لا يستطيع أن يستقبل أكثر من – ما أدري – ألف أو ألفين من الكيلو مترات، ثم يضعف الاستقبال بعد ذلك، لكن بعد الأخذ عن طريق القمر الصناعي يستطيع الإنسان أن يلتقط أي برنامج تلفزيوني في الدنيا. قال لي صديقي – وهو محق –: في غدٍ سيدخل بيتك وبيتي هذا الغزو المفسد للأخلاق عن طريق التلستار ولن تستطيع أن تمنعه.

أفليس من الأوْلى أن نصنع إعلاماً إسلامياً لكي نصد هذا الزحف – هذه حقيقة – لكن أعود إلى المقارنة، إلى اللمحة الخاطفة التي قلتُها، لو أننا نعيش

إسلامنا حقاً... لو أننا نعتز بإسلامنا... لو أن فينا هذا الاستعلاء بالإيمان الذي كان في الأجيال الأولى... لقلنا لأوروبا إن إعلامك إعلام جاهلي، ولانتقدنا أوروبا لهبوطها الحيواني الذي يبدو في وسائل الإعلام ولاستنكفت أوروبا من اتهام المسلمين لها كما استنكفت من قبل فقامت تحطم التماثيل، ولاستطعنا أن نرد غائلة هذا الهبوط الحيواني الذي يجيئنا عن طريق الجاهلية الأوروبية. أما الآن فلا نستطيع... حقيقة لا نستطيع.... لا تستطيع أن تصد أي شاب أو فتاة - إلا من رحم ربك - عن أن يلتقط إذاعة أجنبية أو إرسال تلفزيوني أجنبي بما فيه من مخازي الأخلاق والحث على الجريمة والحث على تغيير الفطرة ذاتها.

الفساد لم يعد فساداً أخلاقياً فحسب؛ إنما تجاوز فساد الأخلاق إلى فساد الفطرة، لا الرجل رجل على فطرته، ولا المرأة امرأة على فطرتها. هذه مسألة ليست أخلاقية، هذه مسألة متعلقة بالفطرة البشرية ذاتها، المرأة التي تقلد الرجل وتسترجل، والرجل الذي يقلد المرأة ويستأنث. هذه مسألة ليست أخلاقية، هذه مسألة فطرية، مسألة فطرة الرجل وفطرة المرأة، وهذا الفساد الذي يمس الفطرة يغزونا من كل جانب، ولن نستطيع أن نصده، وخاصة بعد أن يقرب التلستار إرساليات التلفزيون العالمية، لن نستطيع إلا بأن نعود إلى الإسلام حقاً نعيشه، نعيشه بكل ذرة في كياننا، نعيشه بتصوراتنا، نعيشه بأفكارنا، نعيشه بمشاعرنا، نعيشه بثقافتنا، بتعليمنا، بممارساتنا الواقعية، كل شيء في حياتنا يصبح إسلامياً عندئذ، وعندئذ فقط نستطيع أن نصد هذا الغزو، ولن يؤثر فينا كل الإغراء الذي تصنعه تلفزيونات العالم ولو جاءت بالراقصات العاريات، وهي تأتي براقصات عاريات تماماً كما ولدتهن أمهاتهن - أستغفر الله! - فإن أمهاتهن

لم تلدهن فاحشات على هذه الصورة! ولكن حين نكون مسلمين حقاً، أى حين نمارس الإسلام بكياننا كله.... فإن كل كيد الشيطان لا يؤثر علينا، الله سبحانه وتعالى هو الذي يقول عن الشيطان: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل: آية ٩٩، ١٠٠]. وهذا هو كيد الشيطان في وسائل الإعلام الأجنبية يغزونا، يغزو قلوبنا، يغزو أرواحنا... البنات والأولاد يعكُفُونَ على التّلفاز، وإذا جاء فيلم أجنبي بكل ما فيه يسهرون معه إلى ما بعد منتصف الليل، وإذا جاء الحديث الديني وهو مغمض العينين يقفل الجهاز.

ينبغي أن نسد هذا الفراغ، ينبغي أن ننشئ إعلاماً إسلامياً، لكننا نكون واهمين جداً إذا تصورنا أننا نستطيع أن نقتطع الإعلامِ وحده فنصبغه بالصبغة الإسلامية، إذا كانت بقية حياتنا بعيدة عن الإسلام، كُلّ شيء ككل شيء.

لا نستطيع أن ننشئ إقتصاداً إسلامياً إلا بأن نمارس الإسلام كله.

لا نستطيع أن ننشئ مجتمعاً أو صورة اجتماعية إسلامية إلا بأن نكون ممارسين للإسلام كله.

لا نستطيع أن ننشئ مناهج تعليم إسلامية إلا بأن نكون ممارسين للإسلام كله.

كذلك بالنسبة للإعلام: لا نستطيع أن ننشئ إعلاماً إسلامياً إلا حين تنطبق حياتنا على قواعد الإسلام وأركانه انطباقاً كاملاً... تنبثق انبثاقاً ذاتياً من تصورات الإسلام ومفاهيمه ومن منهجه السلوكي العملى. عندئذ نطمع أن يكون إعلامنا إسلامياً، ولكن هذا لا يمنعنا على أى حال من أن نعطى تصوراً، وإذا كان حسب هذه الندوة أن تعطينا تصوراً سليماً أو أقرب إلى السلامة

للإعلام الإسلامي فذلك فضل كبير، لأن التصور يسبق دائماً التطبيق العملي، وإلا فأنت لكي تطبق أي شيء لابد أن يكون لديك تصور واضح عما تريد أن تطبق، فلنفكر معاً: كيف يكون التصور؟ التنفيذ سيتأخر حتماً، ولكن فلنتصور معاً: كيف يكون الإعلام إسلامياً؟

نستبعد بادئ ذي بَدْء أن الإعلام الإسلامي هو الأحاديث الدينية والمواعظ- لن نلغيه - فليطمئن الناس إلى أننا لن نلغي الأحاديث الدينية - نستغفر الله - ولكن حجمها بكل تأكيد لن يكون هذا الحجم المتضخم الذي نفكر فيه أو نلجأ إليه حين نتحدث عن الإعلام الإسلامي... إنما تكون نشرة الأخبار من وجهة النظر الإسلامية ... عرض مشاكل الاقتصاد من وجهة النظر الإسلامية... عرض مشاكل المجتمع من وجهة النظر الإسلامية... عرض الثقافة من وجهة النظر الإسلامية... عرض كل شيء يكون من وجهة النظر الإسلامية ... سيأتي إليّ الآن سؤال - وأنا عارف -: كيف تكون نشرة الأخبار إسلامية؟ تقول بسم الله الرحمن الرحيم في أول النشرة؟! نعم ... نقول: لكن ليس هذا هو الذي سيجعلها إسلامية. نشرة الأخبار تحتوي على أخبار العالم وصراعاته، على أي شيء يتصارع هذا العالم؟ ليست مهمة وسائل الإعلام أن تلتقط لي لقطة الكاميرا، إنما هي تضيف من عندها التفسير - يعني عملها عمل فني- هناك فرق بين رسم الفنان ورسم الكاميرا.. الكاميرا صحيح تعطيك صورة واقعية تماماً لكنها صورة غير معبرة عن المعاني الخلفية إلا أن تعطيها تفسيراً معيناً، التفسير هو الذي يعطي الصورة الحيوية والحركة، نشرة الأخبار لن تكون مجرد حدث كذا في اليوم الفلاني في المكان الفلاني إنما تكون إلقاء ضَوء على مشاكل العالم، ومشاكل العالم كما يعيشها العالم

الآن مشاكل جاهلية نشأت من أن البشر لا يعبدون الله، نشأت من أن البشر يعيشون دنياهم ولا يعيشون لآخرتهم، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إنه لَكُم عَدُو مبين * وَأَن اعبُدوني هذا صِرَاط مُستقيم ﴾ [سورة يس: الآيات ٦٠، ٦١].

الصراعات الجاهلية القائمة الآن نشأت من أن الناس يعبدون الشيطان ولا يعبدون الله كما ينبغي أن يُعبد....

هذا هو المنطلق الذي نستطيع أن نعطي منه نشرة الأخبار، وتحت هذا الظل نذكر صراعات البشر، إنها صراعات جاهلية في حس الإسلام، فلنقل للناس ذلك، فلنربي في إحساسهم أن ينظروا إلى الحياة البشرية المعاصرة من وجهة نظر الإسلام لا من وجهة نظر أن الدول العظمى تتصارع فيما بينها... الآلهة الصغيرة... هذه الأرباب الزائفة تذهب بالعالم يميناً وشمالاً، والدول الصغرى مسكينة ملتَهمة أو ضائعة بين أرجل الآلهة، هكذا تُصور نشرات الأخبار التى تُذاع في العالم الإسلامي، هكذا تصور أحوال العالم، هذه ليست وجهة النظر الإسلامية، إنما تكون نشرة الأخبار إسلامية حين تعرض أحوال العالم وانحرافاته وضلالاته من وجهة النظر الإسلامية.

وعندنا مُشكلة في المجتمع أصحَابنا المفكرين عندما يقومون بعرض المشكلة من أين يأتون لها بالحل، يرون أوروبا عرضت لها هذه المشكلة في القرن التاسع عشر أو الثامن عشر أو في القرن العشرين، و المفكر الأوروبي الفلاني أو الفيلسوف الفلاني قال كذا في هذا الأمر والمصلح الاجتماعي الفلاني قال كذا وماوتسي تونغ قال كذا والزعيم الفلاني قال كذا ...

وأين الإسلام؟!

أين وجهة النظر الإسلامية؟

أين شرح هذه الحقيقة للناس؟

إن الناس لا تستقيم حياتهم إلا حين يستمدون من منهج الله، وإنهم حين يستمدون من منهج الله تتضاءل المشاكل إلى أصغر قدر ممكن ... لا أكون مخادعاً و لا واهماً لأقول إن المشاكل تنتهي حين يطبق التشريع الرباني، لا ... ربنا يقول: ﴿ يَا أيها الإنسانُ إنَّكَ كَادِحٍ إلى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيه ﴾ [سورة الانشقاق: آية ٦] فيقرر أن هذه الحياة الدنيا حياة كدح، ولن تكون تلك الصورة المثالية الجميلة، لن تكون الجنة، لن تخلو من الصراع، لن تخلو من الكدح ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعضَهُم بِبَعضٍ لَفَسَدتِ الأَرْضُ ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٥١] سيكون صراع... لكن صراع على ماذا؟ الصراع الذي يبينه الإسلام هو صراع بين الحق والباطل... صراع بين لا إله إلا الله وأتباعها وبين أتباع الشيطان، وهكذا ينبغي أن تعرض الأمور كلها، ينبغي أن نقول للناس المسلمين الذين يقولون لا إله إلا الله.... ينبغي أن نبين لهم مقتضى لا إله إلا الله في الاقتصاد ... في الاجتماع ... في السياسة ... في الفكر... في الثقافة ... في كل شيء ... عندئذ يكون إعلامنا إسلامياً، التنفيذ سيتأخر، ولن أتكلم الآن عن التطبيق الواقعي لأنه كلام عبث، يعني ما دام التجربة لم تقم بعد، ما دامت حياتنا ما زالت بأجزاء منها بعيدة عن التصور الإسلامي والسلوك الإسلامي فمن الوهم أن أقول أنني في الغد سأنشيء إعلاماً إسلامياً، لكن حسبنا كما نقول أن نعطي تصوراً، ستجيء مشكلة: هذه المشكلة مشكلة جادة، وأطرحها للبحث، لا لإعطاء الحل، إنما أنا مارستها فكرياً وأحب أن تتصورها معي: إن هناك خطراً كبيراً ...حين يسمع سامع كلامي هذا يظن أننا حين نلقي نشرة

الأخبار أو نتحدث عن مشاكل المجتمع أو عن مشاكل الاقتصاد أو عن الثقافة أو غيره أن يكون كل كلامنا من أول الصباح إلى المساء قال الله وقال الرسول، إذا صنعنا ذلك فسنعود إلى مسألة الإملال والإضجار التي تحدثت عنها من قبل.

الإعلام الناجح هو الذي يحدثك بطريق غير مباشر فيه حديث مباشر في الموعظة والحديث الديني... حديث مباشر في مكانه، صواب مؤثر حين يُعطى بالجرعة المناسبة، ولابد أن يكون مباشراً، لكن فيما عدا هذا النطاق المحدود - نطاق الحديث الديني والموعظة - ينبغي ألا يكون حديثنا حديثاً مباشراً، لأن هذا يؤدي إلى الإملال والضجر، كيف نتحدث عن الإسلام دون أن نذكر لفظ الإسلام... هذه مشكلة، مشكلة فنية أعرضها عليكم لتفكروا فيها ... ولا أزعم أنني سأعطيكم الجواب الآن لأني لا أملكه، إنما أنا فكرت فيه.

«الشيوعيين» لما عملوا إعلاماً شيوعياً انقلب في أيديهم إلى وعظ شيوعي، صارت نشرة الأخبار والحديث كله كأنه بيان مذهبي مثل « منافست » كارل ماركس، هذا خطر أخشى حين نقوم بإنشاء إعلام إسلامي أن نمر في هذه التجربة الخطرة، إن أصحاب الدعوات حين يعبرون عن أفكارهم في مبدأ الأمر يميلون إلى استخدام الطريق المباشر، هل يمكن تجاوز هذه المشكلة؟ هل يمكن أن نقفز رأساً إلى التعبير غير المباشر وهو المفيد والمثمر والمؤثر أم أننا سنحتاج أن نمر حتماً بهذه التجربة بأن نظل سنة أو سنتين نتحدث عن الإسلام حديثاً مباشراً في الاقتصاد والاجتماع وكذا ونقول وجهة النظر الإسلامية كذا، المنهج الإسلامي كذا، في كل أمر من الأمور نريد أن نتجاوز هذا . . . فهل نستطيع؟ آخذ القصة التي هي فن صرف ولا بد لنا أن

نستخدم الفن، القرآن كتاب الدعوة أجمل أسلوب عرفته البشرية الأسلوب المعجز بجماله التعبيري فالجمال التعبيري أو التعبير الفني خادم لهذه الدعوة ولا يقل أحد في نفسه ما للإسلام وما للفن، لكن فقط من باب الاحتياط نقول أنه حين نتحدث عن الفن يتبادر إلى ذهننا الرقص والموسيقى الخليعة والغناء الخليع فيستحيل على أذهاننا أن تتصور رابطة ما بين الإسلام وبين الفن.

لا ... الفن الإسلامي فن إسلامي يعني بعيد عن كل هذه الفواحش التي ترتكب باسم الفن، لكن الفن بوصفه تعبيراً جميلاً عن المعنى الجميل هو خادم لهذه الدعوة، وينبغي أن نفكر منذ هذه اللحظة إن لم نكن فكَّرنا من قبل في إنشاء فن إسلامي، أذكر القصة كيف تكون القصة إسلامية ولا يُذكَر فيها اسم الإسلام أو الفضيلة أو الآخرة أو اليوم الآخر أو الألفاظ المباشرة هذه هل يمكن؟

عندي في حوزتي ولا أقول في حوزة يدي لكن يعني قريب مني مجموعة من قصص قرأتها لن أعلن عنها الآن لأني لا أريد الإعلان لكن عن نفس بشرية ذاقت مرارة تجربة السجن الحربي في مصر بما فيها من عذاب، بما فيها من ألم، بما فيها من حرمان بما فيها ممن يقتل ويعذب ويصنع به ما يصنع، عاشت سنوات ستاً أو أكثر من هذه التجربة المريرة واستوعبت هذه التجربة شعورياً ثم انطلقت بها في تعبير فني، هذا لون من الألوان أنا لا أقول من صاحب القصص، لست أنا على أي حال، أنا لا أكتب قصصاً لا تفكروا إنه أنا، لكن يعني هذا لون رأيته بنفسي من إمكان التعبير عن المعاني وصراعات الحياة وعذابات الحياة من وجهة النظر الإسلامية وبالروح الإسلامية دون ذكر

للفظ الإسلام الصريح هذا نموذج فردي، لو أن كلِ فنان مسلم حاول من جانبه أن ينشئ فناً إسلامياً على هذه الصورة، يعني يعبر عن المعاني الإسلامية دون أن يذكر لنا بصفة مباشرة لفظ الإسلام أو لفظ الفضائل أو كذا يكون عندنا فن إسلامي كذلك لو أن مفكرينا الاقتصاديين، مفكرينا الاجتماعيين المثقفين عامة لو أنهم عاشوا الإسلام بهذه الصورة ثم تركوا الإسلام يتفاعل مع مشاعرهم مع قلوبهم مع أفكارهم ثم ينتج... يفرز إفرازاً فنياً أو إفرازاً علمياً عندئذٍ يكون لدينا المادة الخامة التي تصلح للإعلام الإسلامي.

متى يتم هذا ؟

وكيف يتم؟

هذا أمر متروك لله أولاً، لكن علينا أن نحاول... أن نضع في أذهاننا هذا التصور، إننا لا نريد حين نقول إعلاماً إسلامياً أن تكون القصة تتحول إلى موعظة، ويتحول الحديث إلى موعظة، وتتحول نشرة الأخبار إلى موعظة. نريد أن نستخدم ما يسميه الغربيون التكنيك يعنى أداة التعبير المناسبة للموضوع بصورة غير مباشرة.

يوم نصل إلى هذين الأمرين... إلى أن نقيم حياتنا ... سلوكنا وفكرنا وتصورنا وأخلاقنا وثقافتنا على قواعد إسلامية ويوم يفكر فنانونا ومفكرونا في إنتاج غير مباشر يعرض لنا حقائق الحياة كلها من زاوية الإسلام وبروح الإسلام بطريق غير مباشر عندئذ سنصل إلى أن يكون إعلامنا إسلامياً، وأتوقع أنه يجيء لي سؤال:

طيِّب ولِمَ نعمل إعلاماً إسلامياً وتأتي سلطات في أي بلد من البلاد الإسلامية تحول بيننا وبين نشر هذا الإعلام الإسلامي؟

هذا سؤال وارد ... وغير وارد... وارد لأنه حقيقة، وغير وارد لأنه يوم نعيش إسلامنا على الصورة الحقيقية التي تحدثت عنها فلن تستطيع قوة في الأرض أن تمنع المسلمين من أن يكونوا مسلمين في سلوكهم ... في تصورهم... في حياتهم الواقعية، وفي إعلامهم وفي كل شيء.

هذا حديث ما أدري إلى أي حد ألممت فيه بما كنت أريد أن أقول. ولكني أقف الآن وأستقبل - إن شئتم - أسئلتكم لعلها تفتح جوانباً من الموضوع لم أكن أشرت إليها ولكن هذا الذي في ذهني الآن قلته لكم، وأحمد الله إليكم وأستغفر الله لي ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.....

* * *

فهرس الموضوعات

* * *